

قصص

مسامرة جيدة لأرق طويل

عصام الزهيري

مسامرة جيدة لأرقٍ طويل

عصام الزهيرى

وزارة الثقافة



سلسلة

حروف

تصدرها

الهيئة العامة لقصور الثقافة

• مسامرة جيدة لأرق طويل

• تأليف: عصام الزهيرى

• الطبعة الأولى:

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة - 2013م

5ر13 x 5ر19 سم

• تصميم الغلاف: د. خالد سرور

• المراجعة اللغوية:

أحمد مصطفى إبراهيم

• رقم الإيداع: ١٨٥٢٠/ ٢٠١٢

• الترقيم الدولى: 3-172-718-977-978

• المراسلات:

باسم / مدير التحرير

على العنوان التالى: 16 شارع أمين

سامى - قصر العينى

القاهرة - رقم بريدى 11561

ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت: 23904096



تعنى بنشر الأعمال الإبداعية

لمبدعى مصر المتحققين

مسامرة جيدة لأرق طويل

أمور ثعابينى

لسنوات طويلة امتلأت أحلامى بالثعابين والحيات..

ذات ليلة حلمت بثعبان يسقط على رقبتى من سقف المسجد الذى اعتدت الصلاة فيه. كنت أصلى فى المؤخرة وأخذ الثعبان يعتصر رقبتى بعضلات جسده المقرفة. كان يخنقنى وهو يضع وجهه الشرس المشوة المليء بمخاط سائل على القرب من وجهى. الصفوف الأمامية للمصلين كانت لا تبالى أو لا تنتبه وأنا عاجز عن إطلاق صرخة أو إخراج صوت.. ربما لضغط جسم الثعبان على حنجرتى أو لأن الحلم أراد ذلك.

طبعا من الممكن التوسع فى الموضوع على طريقة ابن سيرين لأفترض أن ثعبان الحلم الساقط من سقف مسجد رمز واضح لطريد العدالة الإلهية الذى سقط خصيصا ليصرفنى عن الصلاة. والصرف عن الصلاة هلاك، والهلاك فى الحلم موت وخنق.

هذا التفسير سوف تدعمه علاقة قديمة بين إبليس والأفعى، الأفعى أيضا رمز ديني.. غير أن هذا الأمر مستبعد لمن اتسمت علاقته بالثعابين بالتوغل فى جهل الطفولة بمثل هذه الرمزية المعقدة. ذات ليلة أخرى، وكان عدد لا بأس به من العداوات يتراكم من حولى، رأيت فى سقف حجرة نومى كوة مربعة الشكل فوق فراشى بالضبط، وكانت تنساب منها ثعابين تتساقط فوق رأسى. كانت ثعابين من عجين أو مطاط طرى، وكانت ذات جلود مفضضة ووجوه آدمية. وكنت أنام فى الحلم لصق الحائط والثعابين تتدلى من الكوة السقفية فتتمطط أجسادها وترق وتنحف لتصل إلى حجوم أقلام الرصاص، والوجوه الآدمية الصغيرة تكتسى أكثر بسموم الخبث والشر. وإذا بحبل النجاة يلوح لى فجأة بعد أن كان قد جمدنى الرعب. شىء قال لى: إنه كى أنجو بجلدى من هذا الهطول الثعابينى فما على إلا أن أستجمع نفسى أولا ثم أقفز قفزة واحدة تعبر بى مساحة الفراش التى تقل عن المترين، لأجد نفسى قريبا من باب الحجرة المفتوح. وأخذت أستجمع للقفزة المنجية طاقة كل عضلة فى جسدى وأشد أوتارها وأرهفها على حد الخطورة والموت المنتظر، ثم قفزت. وتكفلت القفزة بإيقاظى بعد أن اندقت لها عظام مؤخرتى على الأرض المجاورة للفراش.

يمكن افتراض صلات أيضا بين اقتران الثعابين بالسقف فى حلمين متتاليين، وهى مسألة ذات أبعاد ميتافيزيقية محترفة. غير أنى لا أملك الآن أى مشاريع توسعية فى مثل هذا الموضوع، ويهمنى أكثر أن أحدد علاقتى بالثعابين تحديدا نهائيا. فالخبرتان السابقتان

بالثعابين ليستا الوحيدتين، ثمة ليال أمطرت فيها سماء الحلم ثعابين صغيرة في عرض الأصابع وطول السحالي. وفي ليال أخرى قتلني الخوف وأنا أترصد لحركات ثعابين غير مرئية تدور في الظلام من حولي. أما كيف عرفت أنها ثعابين طالما كانت غير مرئية، فيسأل في هذا الحلم نفسه.

في ليلة غريبة كان ذا جلد مرقط مدهون بمخاط مقرف ويجلس على كرسي واسع من كراسي الأنتريه، وكأن الكرسي كان مخصصا لجلوسه عليه طول عمره، لم يكن يجلس على هيئة جلسة البشر. حوله كان أفراد أسرتي يجلسون جلسة عادية جدا، ويشاهدون التليفزيون كذلك!.. وكان وجوده على هذه الصورة الطبيعية بين أفراد أسرتي دافعا لي كي أكبت رعبي من وجوده. وكان هو يرسل إليّ من حين إلى آخر نظرة نارية تكشف إحساسه بمشاعري هذه.. وفي حالة هذا الثعبان الأخير تميل العواجيز والجدات إلى اعتباره عدوا غير صريح، أو عدوا قادرا على التخفي وتغيير جلده كثعبان. والمنطقي هو أن يكون هذا العدو قد غير جلده ليبدو في شكل واحد من أفراد أسرتي، ويكون الحلم كذلك هو إشارة تحذيرية وكشفا مسبقا له.

وهذا هو تجسيد أفكار الجدات والعواجيز الذي لم يعد له شأن يذكر في هذه الأيام. وفضلا عن أن تحذيرا من ثعبان مجهول على هذا النحو هو سخيف، خاصة لو كان هذا الثعبان يملك بين أنيابه سما من النوع الجيد، أيضا فإن وجوده كشرير من أفراد أسرتي يجعل من محاولة تجنبه أمرا لا لزوم له.

عموما الاستمرار في تقصي علاقتي بالثعابين من جميع نواحيها

هو بلاشك أفضل من التوقف طويلا عند كلمات الجدات وقدماء العواجيز.

***

أمام منزلنا القديم، رعى الله ذكرى أيامه، كانت تمر ترعة عريضة جارية الماء. وذات يوم، خرج من الترعة ثعبان مسرعا. كان واضحا أن عبور الطريق من الترعة إلى باب بيتنا هى وجهته المقصودة.

تراث الثعابين فى الأرياف يجعل منها كائنات عاقلة بمعنى الكلمة، تعشق وليفها وتنتقم لها فى قصص كثيرة مشهورة، يمكن التفاهم معها بالإشارة والصفير وبأكثر من طريقة أخرى يتقنها الحواة ومشايخ الطريقة الرفاعية.. بل يمكن للبشر قطع عهود ومهادنات فيما بينهم وبين الثعابين.

قريبا من منزلنا القديم هذا، كان يقيم واحد من هؤلاء البشر الذين لهم باع طويل وعشرة مع الثعابين، كان اسمه غاندى، بيته الصغير المظلم فى عز ساعات توهج الشمس كان يموج بحركة ثعبانية متواصلة، ويكتظ بعشرات منها من مختلف الأنواع والأشكال والأعمار.

قيل: إن العهد الذى قطعه على الثعابين وقطعه للثعابين على نفسه طبعا يملى عليه ألا يقتل ثعبانا لأى سبب. الضربة الموجعة التى تلقتها أسطورة غاندى بعد ذلك جاءت حين لم يجد الناس تفسيرا لموت الساحر بسحره وموت غاندى بلدغة أحد ثعابينه الخطرة. لكن يكفى أن تعرفوا أن شخصا كغاندى لم يكن حتى هذه الآونة قد دخل فى باب الندرة، وجوده كان وجودا عاديا، وما يفعله كان يؤخذ على

سحمل هواية تشبه في نظر الناس عشرين هواية أخرى على الأقل، من بينها صيد السمك.

ولنعد إلى الثعبان الطالع من ترعته "قصداً" إلى باب منزلنا القديم..

كانت ساعة غروب مما أحال الزحف السريع للثعبان إلى تداخل ألوان في عيني. بدا لي كما كنت أهتف وقتها بفرح:

سمكة! .. سمكة!

ويبدو أن الثعبان لم يكن أقل حفاوة بي، إذ كان يتوجه نحوي مباشرة. كنت أتصدر بسلامتي الباب وأتفرج عليه. وما حدث كان يمكن أن يكون مأساة لولا أن صياحي لفت نظر أبي. ولم يطل أبي تأمله في الموضوع قبل أن يخلع حذاءه ذا الطراز القديم لحسن الحظ ويهوي بكعبه الضخم على رأس المسكين حتى قتله.

لم يوضح لي أبي آنئذ: لماذا قتل السمكة؟!. واعتبرني مجرد طفل أبله نجاه الله وجده بمعجزة منه، وكانت إثارة المعجزة بادية على قسماته. فعل أبي أدهشني في سني الصغير هذا، ولم يكشف لي حقيقة ما حدث إلا أمي وبعد هذا بزمن طويل، وكان أبي قد مات تاركا حادثة الثعبان ضمن ذكريات جد قليلة لا أزال أعيها عنه.

أرى الآن ميلا إلى تلمس الحادث القديم بوصفه عقدة عتيدة تجمعني بالثعابين منذ طفولتي!

لا ضير في ذلك حقيقة، إذ لن يغير شيئا من حقيقة ارتباطاتي الثعبانية، لكن لا بد من إضافة أمر هام..

صدمة اكتشاف ما كانت السمكة التى قتلها أبى، بل وصدمة قتله لها أيضا، هى أشياء لم أولها أهمية كبيرة فى حينه. وذلك فى ظل حقيقة أخرى، هى أن موت أبى نفسه لم يكن بالصدمة الهامة بالنظر لعمرى وقتها، أو أنها صدمة لم تكن بالضخامة التى اعتاد الناس أن يصفوها به.

***

فزعى من الثعابين ورؤيتها هو فزع أعمى كما ترون، فزع لايقبل التبرير، علاقتى بها علاقة عداء من جانب واحد، هو جانب الثعابين وجبن فظيع من جانبى. وهذا الجبن هو ما جعلنى دائم التفكير فى سبل حماية نفسى منها. كنت مرة أستذكر الطرق المثلى لصيدها مع أحد خبراء المجال، وفهمت من الرجل أن الطريقة الوحيدة لصيد ثعبان هى بالتقاطه من منطقة الرأس. إذ فى الوقت الذى يستقر فيه رأس الثعبان بين إصبعى صائده يكون هذا قد أمن لدغه نهائيا.

كان صيد الثعبان من شرحه على يد الخبير أمرا بادى السهولة، فى طوق أى طفل صغير إذا تغلب على خوفه أن يلتقط ثعبانا من رأسه وأن يصفى سم أنيابه على طرف كأس زجاجى. لكن ما لم أفهمه ولم يشرحه الخبير هو كيف يتغلب الطفل الصغير على مخاوفه!

إجابة هذا السؤال كان التخلص من ثعابين أحلامى بطريقة واعية ناجحة.

بناء على نصيحة صديق ممن عرفوا عمق علاقتى بالمسائية بالثعابين، اقتنيت فى منزلى ثعبان كوبرا، أنثى كوبرا حقيقية، وأكثر

من رائعة برأسها المفلطح كملعقة كبش من الحجم الوسط. ظلت تطل عليَّ بعينيها المرعبتين من وراء حوض زجاجى يشبه حوض أسماك ملونة. استغرقت أسابيع كى أنجح فى الاقتراب منها بطريق آخر غير السهو. وظلت هذه الكوبرا منزوعة الأسنان تراقبنى داخل حوضها الزجاجى وتثير فى جلدى قشعريرة فظيعة وتحرمنى النوم فى وجودها لأسابيع، حتى اعتدت فى النهاية فكرة وجودها بالجوار، بل وبدأت أحدق فى جلدها الزاهى ويقظتها المستمرة وانسيابية جسدها، وأعتبرها بشكل أو بآخر مزايا يحمل لها المرء التقدير.

لفت نظرى بعد ذلك أن الأحلام الثعبانية اختفت من نومى منذ تلك اللحظة التى دخلت فيها منزلى أنثى الكوبرا الجذابة!.. والأعجب أنها لم تعد بعد رحيلها!

كان الوداع المؤسف فى نهاية الأمر لكوبرتى هو العائق الأخير الذى زال من طريق زواجى. وهذه أيضا قصة أخرى!

موناليزا

١

نقلت من إدارتى بالدور الرابع بترقية، هبطت بها إلى الدور الأول رئيسا للخزينة، عمل جديد مريح، ضربة مفتاح صباحية وجرد آخر النهار، ما بينهما قراءة الصحف، قراءة وجوه العملاء، قراءة الفاتحة على أرواح من يتوارد ذكرهم من الموتى فى مخيلتى، رجلان فقط كل من أرأس من موظفين، أحدهما أسمر قصير القامة يرتدى نظارة سميكة وفى منتصف العمر تقريبا، الآخر أسمر أشيب الشعر متوسط القامة سمنته المنسابة مع ضيق كتفيه تجعله أشبه بكيس محشو بمواد لينة ليست جيدة التوزيع بين أجزاء جسده المترامية.

فى الأصل، لا أحب التملق، لا أتملق أحدا ولا أسمح لأحد أن يتملقنى، بقليل من القتامة المحسوبة أستطيع القضاء على اختلاج

هذه المشاعر الوظيفية الشبيهة بزلال البيض فى مهدها. لكن اقتحمنى الأسمر متوسط القامة، عرفت أن اسمه "عبدالرحمن"، ترك مكتبه المجاور وجلس على الكرسى الملاصق لمكتبى، مد لى يده بسيجارة وعلى شفتيه الابتسامة الزلقة التى أعرفها جيدا مضافا إليها جرأة تقول: "خذ خذ!..لا معنى لأن ترفض سيجارة من زميل!". بعدها امتدت يده بالسيجارة، تناولتها من يده مترقبا الخطوة التالية، مد ذراعه بولاعة وأشعلها لى، قلت: شكرا! فسألنى مرة واحدة: مزاج سيادتك إيه؟!.

طرف عينه كان يشير لسيجارتى المشتعلة وشكل ابتسامته يتغير بسرعة لا يباريها إلا تبدل التعبير على شفاه الموناليزا فى اللوحة الشهيرة، كانت هذه المرة تقول بوضوح: إننى لن أستطيع مهما كنت قويا أن أتجنب ردا لطيفا على هذا السؤال الوقح، ومرة أخرى قررت أن يكون لى رد فعل مختلف، قلت له وأنا أضيّق عينى وأنظر مباشرة فى عينيه: حشيش!

انتظرت أن يندهش أو ينكسف أو تتواضع جرأته أو يخشى صراحتى لكن شيئا من ذلك لم يحدث، ضيّق عينيه تواطئا وكأننا نؤدى معا مشهدا فى فيلم من أفلام الجاسوسية، ثم نهض سريعا قائلا: أوكى!

لاحظت بسمة مستخفة على شفاه كيس المواد اللينة الذى عرفت أن اسمه "عبدالتواب".

٢

تعودت أن أنهض من نوم القيلولة قبل الغروب، آخذ دوشا وأصلى، بعدها أرتدى ملابسى وأخرج، أقف على باب البيت قليلا أطالع وجه الشارع، أطل على المقهى القريب فى وسطه ثم آخذ الاتجاه العكسى، أدور دورة واسعة تمر بشوارع وسط البلد وأعود من طرف الشارع الآخر إلى نفس المقهى المجاور للبيت. فى هذا اليوم أيقظنى من النوم رنين التليفون، سألت المتحدث عن نفسه، أجاب: عبدالرحمن!، فسألته مرة أخرى: وماذا تريد يا عبدالرحمن؟!. قال: مشوار صغير سعادتك مع بعض!. عرفت أنه "عبدالرحمن" زميلى بتاع الصبح، قلت له: أوكى!.

٣

أدخلنى شارعا مسحورا له عنق رفيع بين جدارى منزلين لا يلحظ الناظر بسهولة المسافة بينهما، بعد شارع من جوّه شارع عرجنا على زقاق، اتضح لى عند نهايته أنه ليس زقاقا بل شارع يلتف لليسار نافذا إلى شارع مواز للشارع العمومى الذى جئنا منه وملاصق لظهر البيوت التى تطل عليه. فى الواقع توجست من شىء لا أعرفه رغم أنه ظل يتحدث طيلة السير عن مقهاه المحندق الذى ليس بعيدا وكيف أنه صغير ولكنه هادئ وسيعجبنى وبعيد عن الدوشه و..و..

أخيرا وصلنا مقهاه الذى ترتص كراسيه متجاورة على رصيف عال فى بيت حديث البناء من عدة طوابق، جلسنا على كرسيين متجاورين، اقترب كهل قصير بشعيرات قصيرة نابتة على ذقنه وجلباب وطاقية، سلّم وجلس، عرفت أنه "المعلم" صاحب المقهى، كنت أظن أن المقهى ملك زميلى، وعرف الرجل من "عبدالرحمن" أننى الريّس مع غمزة من عينه قام بعدها "المعلم" قائلا: طيب أسيبكم بقى على راحتكم!.

أخرج علبة سجائره، ناولنى سيجارة ومد ولاعته وأشعلها، لم أكن مستريحا وبدأت التفكير فى حجة للانصراف، تحدث هو عن سعادة عموم المؤسسة بترقيتى ثم بمجيئى إلى الخزينة وأضاف كمن يحتج على أحد: كده الخزينة تنظف!. تذكرت ابتسامة "عبدالتواب" المستخفة وخمنت أن حديثه مجرد مقدمة، فى الحقيقة لم أسترح لـ"عبدالتواب" هذا، استقباله لى كان ينطوى على تحفز بلا سبب ظاهر، لكننى لا أستريح لـ"عبدالرحمن" أيضا بسبب كل هذا الذى يحدث لى معه، رغم ذلك تخايل فى الهواء المعتم البارد دفق من الاستمتاع بحديثه أخذت أتلقاه مسترخيا، تمنيت لو يستمر حتى أكتشف بسرعة كل ما هنالك.

٤

أخيرا، رفعت للسماء وجهى، تنفست زفيرا عاليا طويلا، كان الهواء ينسحب من بين شفتى ليصلنى وصلا بنجوم السماء التى أراها، والدخان الخارج من أعماقى امتداد سحرى يصل بينى وبين

السماء بعمق، النجوم ذاتها كانت قريبة من وجهى، تخيلت أنى بشهيق عادى يمكننى سحب كل ما أرسلته للأعلى من دخان مضافا إليه نجمة أو نجمتان تسقطان فى شبّاكه، وكلما تخلو صفحة السماء من الدخان رسمت عليها الموناليزا بالمسافات بين النجوم أروع ابتساماتها غموضا وسخرية. "عبدالرحمن" كتفاه متهدلان، كوع يرتكز به على ساقه فى نهايته تحمل أصابعه نظّارته التى خلعها وتوشك أن تفلتها، نبراته بطيئة مستحمة فى اخضرار وزرقة، ذكر أن زميلة "عبدالتواب" حرامى، وأنه يقفل اليوم - كل يوم - بعشرين ثلاثين جنيها لا يشارك فيها أحدا ويدّعى أنها حلاله وحده، عشرون ثلاثون جنيها من بقايا وفروق الفكة فى حسابات المتعاملين، قال أيضا: إنه رهن أوامرى وأنه مستعد لتحمّل الأمانة إذا ما كلفته بها، وأنه لن يتصرف فى مليم واحد دون مشورتى..

أنزلت وجهى من السماء، كان لا يزال يتكلم، أشرت بيدى أن يكف، قلت له متلعثما:

- أوكى!..أوكى!..الصبح أنا أتصرف!

فى الصباح وضعت على مكتب المدير العام طلب نقلى وقمت بإجازة طالت بعض الشىء.

السقوط من أعلى

من قبل كانت حياتى تشبه مدخل مدينة أو طريقا سريعا موصلا إلى ميناء، آهلة بكل صنوف الحياة اليومية، ضوضائها وسرعتها وهدوئها ومثلها العابرة..فى ذلك الوقت قبل أن تتراكم على جانب هذا الطريق جثة. منذ سقط الرجل من شرفته على رأسى أصبحت أخشى السير محاذيا للرصيف. إما أن أسير بالداخل ملاصقا للحائط حيث أعود بأكمام ملطخة بجير الحوائط وأتربتها أو أسير بعيدا فى منتصف الشارع حين يكون الشارع خاليا من السيارات. ورغم أنى من عشاق الوقوف فى النوافذ والشرفات إلا أنى أتمنى فى بعض الأحيان أن تصبح البيوت والشقق والعمارات علبا آمنة مقفلة وخالية منها. عندما سقط الرجل ورائى كان ما يفصل جسدى عن جثته أقل من مترين. وفكرت أننى فى اللحظة التى كنت أسير فيها على البقعة التى سقط

عندها كان هو قد بدأ في السقوط فعلا. أكثر من متر واحد هو ما فصل بين لحظة موته ولحظة موتي، وكان يمكن أن يجمعنا موت واحد لو احتضنتني جثته وهي في طريقها لمغادرة الحياة. سقط الرجل ومات أو قتل، لم أبادر إلى معرفة كيف حدث السقوط، سقط أو أُسقط، السقوط نفسه سبب لي صدمة أليمة، اضطرابا لم أكن أتبينه في تصوراتي عن الزوال والوجود العابر. كنت أتوهم قبل السقوط أن كل ما يربطني بالموت البعيد هو علاقة رضا وانسجام، لكني كنت مخطئا. أعرف أن الناس لا تضطرب علاقتهم بالموت إلا عندما يكونون رومانسيين جدا، مثلا عندما يفقد المحب حبيبه الذي كان عالمه كله - وما وراء عالمه يتجسد فيه أيضا - عندها يشعر باقتراب الموت منه هو، وأنا لم أكن أظن نفسي رومانسيا، كنت أظن أني إنسان عملي بسيط يتقبل الحياة والموت على ما هما عليه.

قلة اهتمامي بأمر الرجل - لحساب جثته - أو بأسباب وفاته على هذه الصورة المحزنة ليس ناجما عن فقد للاحساس بالإشفاق على مصيره، كان فقط بسبب انشغالي بأمر أهم هو إشفاقي مما سببه لي سقوطه من متاعب. ربما كان سر اللاواعي وراء قلة اهتمامي به هو خوفي من أن تؤدي معرفتي بتعقيد المسألة لا بحلها، كأن تتأكد ذكرى موته البشعة على القرب مني وتصبح عصية على النسيان أكثر. رغم ذلك لم يكن انصرافي عن شأن الرجل انصرافا كاملا، سألت عن سر موته، قتله أو انتحاره، بالأصح أثير الأمر في ثرثرة مع جار بعد أن أصبح سقوطه حدثا ذائعا في مدينتنا الصغيرة. استقصيت واتضح لي

أن الملابسات التى أدت لموته أكثر غرابة ورعبا من سقوطه نفسه. حكى الجار أنه ينتمى إلى أسرة من غرباء الأطوار تتمثل غرابة أطوارهم فى أنهم جميعا ثلاثة من الأخوة الذكور وأنثى رابعة بقوا جميعا بلا زواج حتى النهاية، ظلوا يعيشون فى نفس الشقة التى ولدوا فيها حتى بلغ أكبرهم السبعين وأصغرهم الخامسة والخمسين. وفى الليلة التى سقط فيها من الشرفة ثارت بينه وبين أخوته معركة جموح. كالوا له - هو أكبرهم الذى يتولى رعاية شئون حياتهم اليومية - سبابا وشتائم. مما جعل المنكود يقسم لهم أنه سينتحر لو لم يتوقفوا. وهم لم يتوقفوا رغم التهديد، سخروا منه بل تحدوه أن يجرؤ هو الجبان - كما قالوا - على أن ينتحر. هكذا تقول رواية الجار ثم تمضى إلى مشهد الرعب بتفاصيله، قام العجوز إلى أحد الكراسى، اصطحبها إلى باب الشرفة الذى فتحه على مصراعيه كى يصبح فى متناولهم رؤية مساحتها كاملة، وضع الكرسى بداخلها، صعد عليه، وقفز. هكذا؟!..هكذا فقط!. وفى هذا الوقت كنت أنا فى الخارج أسير أسفل الشرفة وكان الأخوة فى الداخل يراقبون مذهولين مشهد الانتحار السريع الذى لم يتح لأحد منهم أن يتحرك. هل تجمدت حركتهم أم أن مشاعرهم هى التى كانت متجمدة بفعل حياتهم الخالية التى لا تشبه حياة الناس؟. لا أعرف ولا يهمنى أن أعرف. فأنا الآن أعانى الكثير من جراء الموت الغريب للرجل. وأدهى ما أعانيه هو هذا الألم الذى يعاود اعتصار قلبى من حين لآخر. كأننى كنت مسئولا عن موته. لحظات سقوطه، الصوت المكتوم الذى انفجر ورائى وظننته لأول وهلة صوت ارتطام كيس قمامة من يد امرأة

مهملة، المشهد الذى تمخض عنه نظرى للخلف، بركة الدماء الصغيرة، يده المثنية تحت بطنه، قدمه اليمنى مكسورة أسفل اليسرى، جبهته ملتصقة بالإسفلت، كومة آدمية تنام مضعضعة بعد رحلة سقوط من الطابق الرابع. لحظات تعاودنى متجمعة ومتفرقة بلا إذن مسبق، مع كل ما يصاحبها من هلاوس انفلتت من عقالها كعفريت من قمقم بلا طلسم يمكن أن يعيده إليه. أحلم فى الليل أحلام رعب متتالية وسوداء ومشوهة، فى مرة حلمت أنى أسير فى شوارع كل سكان بيوتها يتساقطون من الشرفات وتستهدف جثثهم رأسى، فى مرة أخرى حلمت بجثته تسد طريقا لا أجد غيره للمرور. الأفظع من هذه الأحلام هو اللحظات التى أدخل خلالها إلى النوم، يمكن فى هذا الوقت لأى صوت يصدر من أبعد مكان أن يفزعنى، احتكاك قدم على الإسفلت بالخارج، صرخة طفل وراء جدار بعيد، مرور سيارة محملة بأوزان ثقيلة..أصوات كهذه تجعلنى أهب مرعوبا موشكا على الصراخ كأن أحدا يتعرض على القرب للسقوط.

أحيانا أفكر أن الوقت كفيل بأن ينسينى الحادث ويجعل من أهواله التى أراها ذكرى تدفع للتندر، لكن حادث السقوط يبدو كمستودع رمال ناعمة يتضخم ويسحبنى للغرق فى أعماقه يوما بعد آخر. بعد أيام منه تداعيت إلى ذكرى أبى الراحل، إلاّ أننى عندما رحل لم أكن صغيرا إلى هذه الدرجة التى تجعلنى لا أتذكره تماما، وأحزن لأنى لا أتذكره ذكرى واضحة. يعاودنى شعور قديم باليتم ويدهمنى الألم، كأن من سقط من شرفة الدور الرابع على رأسى كان هو أبى.

مسامرة جيدة لأرق طويل

استقام جالسا في منتصف الفراش، الدنيا ليل والعالم رخ ينام على بيضة الصمت والظلام..

فكر في أن تكون العبارة بداية جديدة لقصة تدور بها طواحين في رأسه تتصل روافعها بذراع آلي مضطرب كالبندول لا يستقر، لكنه لاحظ شيئا نسف البداية المرجوة، إذ كلّما كان يفكر في كتابته مؤخرا يبدأ بصحو من نوم أو فتح عينين أو خروج من باب!، كلها أفعال يمكن أن تشير إلى تغيير من نوع ما لا يدركه الآن لكن لابد أن نفسه الخفية تحفل به، كونه لم يلتفت إلى هذا التغيير أمر يثير القلق، ربما الخوف أيضا، إذ من أدراه بطبيعة هذا التغيير المنتظر وما الذي يمكن أن يحمله في طياته لو كان حقيقيا!، كما أن معظم أفعال اليقظة والنوم، الفتح والغلق، الدخول والخروج..تتراوح كلها

بين النقيضين، أبيض وأسود، ظلمة ونور..، مما يضاعف من حجم قلقه، فالمرضى فقط - وجامدو العقول - هم من يرون الأشياء بكل هذا الوضوح والحدية والتناقض، فكر مرة أخرى فى ضرورة اللجوء إلى مراجعة سريعة علّه يجد تفسيرا مريحا أكثر لهذا الأمر

"لكنها لن تكون مراجعة شاملة"

أضاف وهو يفكر أن لا وقت لذلك فى أعماق الليل ومنتصف النوم.

لديه عمل فى الصباح، وهو الآن فى منتصف الفراش فعلا، وعليه أن ينهى هذه الوقفة مع اليقظة بأسرع وقت حتى لا تتحول إلى منزلق خطر يستهلك الساعات - مثل موضوع المراجعة الشاملة التى نوى أن يجريها - منزلق يدلف من فتحته ويهوى عبر مجاريه الزلقة الملتوية إلى قاع الحفرة التى يجد نفسه محبوسا فيها مع وحش الأرق وجها لوجه. وهو لا يستعمل المهدئات، ولا حتى الخمور، لأغراض التعامل مع النوم والهروب من الأرق..

فكر أيضا أن تكون العبارة السابقة هى العبارة التالية فى قصته المزمعة، بعد العبارة الأولى ولكن بعد إصلاح الخلل الذى اكتشفه فيها قبل أن تتسبب فى أعطال له!، ربما لو تمكن من معالجة العبارتين السابقتين يحظى بإضاءة أخرى تنير له إشكالية الأبيض والأسود التى استشعر طلائعها، لكن شخصا منظما إلى حد أنه لا يستخدم الخمور للهروب من القلق هل يمكن أن يعانى قلقا فادحا مثل الذى تتحدث عنه قصته!، قرر أن يترك هذه الملاحظة لأحد النقاد الأغبياء واتخذ تفكيره مسارا آخر، إذ بالرغم من أنه لا يقبل على

تناول الخمر فى غير أيام الإجازات إلا أنه عندما يفعل فهو يشرب بإفراط وشراهة وبلا استبقاء لأى حذر، ربما يكون قريب الشبه من هذه الجهة بالغربيين أكثر من بعض مواطنيه الذين يشربون المحيط دون أن يؤثر الشرب أو المحيط على إيقاع يومهم التالى أو مواعيد ذهابهم للعمل.

إذن عليه أن يفكر فى غزوة عاجلة لإرادته ينهى بها هذه اليقظة اللعينة ويستلقى فى أحضان نوم مريح، ليست هى المرة الأولى التى يتذكر فى أثناء قلقه هذه الفكرة الغريبة عن الإرادة، كان قرأها فى مقال ذى عنوان غريب هو "التدريب على النوم"، همس ساخرا: إن الإنسان أصبح فى حاجة إلى تدريب (ترييننج) على كل شىء، حتى الغرائز لكى يحصل عليها كما هى فى حالتها الخام..غرائز!. فكرة المقال هو أنه لكى تحصل على نوم عاجل فإنه لابد من الاتفاق الشامل بين كل من الرغبة والإرادة، وهذا يعود إلى أن الرغبة فى النوم لا تصنع نوما وحدها طالما كان ظن اليقظان أن النوم لن يواتيه، هذا الظن مظهر للتعبير عن الإرادة المنفصلة عن الرغبة وليقع النوم فى فخ النائم لابد أن يقوم بالتوفيق بينهما!. فكرة مقلقة وتشبه إلى حد بعيد دراسات تحضير الأرواح، كما أن مطاردة الإرادة من أجل النوم هى فى حد ذاتها مسامرة جيدة لأرق طويل. عاد للتفكير فى أن الكلمات الأربع الأخيرة عنوان جيد للقصة التى لا يجب أن تعتمد على التداعى عكس ما كان مقررا من قبل جلوسه على الفراش، هكذا كان قراره على باب التورط فى حفلة العناوين، استعرض عناوين أخرى يمكن أن تكون مناسبة أكثر ثم أخذ يفكر فى النزاع

الخيالى بين مئات آلاف عناوين الكتب فى المكتبات العامة ومعارض الكتب، وهو نزاع لا ينفض إلا بأدائه لدور الشرطى واعتقال بعض منها فى قاع كيسه.

يحق له الآن أن يساوره القلق على نفسه، لماذا يرى الأمور بهذا الشكل ولا يراها بشكلها الطبيعى؟، نعم شكلها الطبيعى فيرى العناوين حسانا تتجمل لتحظى بنظرة منه، هل هذه الطريقة فى التفكير هى نتاج الأرق أم أن الشكل الطبيعى هو نتاج عهد سابق، أما اليوم فالشكل هو الذى ليس طبيعيا والكتب أصبحت فى وادى وحدها تتعذب بقتال العناوين فيما جمهور القراء فى أودية أخرى للتلاشى ولا علاقة لهم بالأمر؟!.

عليه أن يفض هذا الاشتباك الغريب بين القصة والأرق ويعود إلى قصته أفضل حتى لا تتشعب عليه الأمور فى منتصف الليل ويتسرب الوقت، قام وذهب إلى الحمام ثم إلى المطبخ وحمل فى يده زجاجة لبن وهو عائد، جلس فى الفراش من جديد وغطى جسمه إلى المنتصف، حاول التركيز فى وقائع سبق التفكير فيها من قصته، لكنه وجد نفسه غير مستعد للتركيز فى شىء فعاد مرة أخرى إلى مطاردة الإرادة وأعجبته اللعبة بعض الشىء حتى تذكر عبارة فى قصة قديمة ليحيى الطاهر عبدالله، عنوان القصة كان "الكابوس الأسود"، لكنه فشل فى أن يستوضح أكثر هذه الهيئة المشوشة التى عادت بها العبارة إلى ذاكرته، على أى حال كانت عبارة تدور حول ضفدع يستيقظ لينق فى رأسه.

قفز

فى الحلم نمت مع الزميلة فى وضع غريب، أمام شاشة الحاسب الذى أعمل عليه فى النهار، تمدد جسدها على جانبه فوق الأرض وأنا خلفها ممددا، أزداد التصاقا كلما حاولت استعمال مفاتيح التحكم فى لوحة الحاسب، ومن حين لآخر يلتف ساقى حول ساقيها. رغم كل هذه الأوضاع المكشوفة كنا نتحسب من وجود عيون حولنا، كاد يقع علىّ وحدى أن أجعل كل الأفعال الصريحة تبدو أفعالا عادية، وكان هذا الأمر مؤلما جدا فى الحلم. الزميلة كانت سلبية غالبا، ولابد أن ذلك هو الترجمة الباطنية لحياديتها الطبيعية فى النهار إزاء إعجابى غير الحيادى بتضاريس جسدها الملفوف برائحة الشهوة ولون النبيذ. عندما سنحت لى أول فرصة فى الحلم قبّلتها قبلة طويلة، طويلة جدا، حتى إنى حسبت بوضوح،

أكثر من مرة وأنا نائم، أن الفجر يؤذن وأنه علىّ أن أتوقف استعدادا للاستيقاظ، غير أنى لم أستطع التوقف، ودخل علينا فجأة زميل لم أتبين من يكون، لكنه تسبب لنا فى فزع شديد، أصيبت رفيقتى بالزغطة، بدا لى أنها ربما كانت ردا مفتعلا على الحضور المفاجىء للشخص، وأن زميلتى تحاول إعطاء انطباع مخفف عن معنى هذه القبلة التى ضبطنا متورطين فيها. أما أنا فقد بدأت تعرونى مشاعر النهاية المحبطة، وظلت هذه المشاعر تتضح حتى تميزت بالسطوع الشديد. حينها استيقظت على جرس المنبه يضرب من مكان بعيد، جلست على حافة الفراش غارقًا فى الحلم وشبه نائم، فكرت فى غرابة الحلم الذى أتاح لى فرصة مع زميلة لا يمكن أن يتاح معها فرصة مماثلة فى الحقيقة. ارتديت ملابسى وتوجهت لعملى، دخلت غرفة المدير وأصداء اللذة والفزع لم تتبخر من رأسى بعد، اقتربت من دفتر الحضور لأوقع غير أنى لاحظت فجأة وجود زميلتى فى الغرفة، كانت تقف فى منتصف الحجرة على بعد من المكتب والمدير، صبّحت وأنا أطالع وجهها فرأيته مغسولا بالدمع وعينيها محمرتين بشدة. توجست شرا وهى تمسح أنفها الصغير بالمنديل وترسل من وراءه نظرات لوم صريح فيها قدر من الرغبة فى الانتقام. تجمدت حيث أنا كالمحبوس داخل مكب ثلج وأخذت برودة قارصة تقضم أطرافى. قال المدير وهو يفترسنى بنظرته النارية:

– ما الذى يمكن أن يحدث يا أفندى يا محترم لو شم زوج الزميلة الفاضلة خبرا عن كل هذه المهازل؟!

كانت أعصابى مخدرة وأفكارى مشوشة. غارقا فى بئر الفوضى والتشتت - حاولت أن أستوضح المدير أو الزميلة عن سر ما يقع الآن، توجهت لبرهة نحو الزميلة لأسأل عن الطريقة الجهنمية التى أوصلت حلمى إليها أو أوصلتها إلى حلمى، لكنى استبعدت المسألة وتراجعت خشية الانفضاح، أردت أيضا أن أحتج نافيا كونى فعلت ما يمكن أن يؤاخذونى عليه، وأردت أن أعتذر لأن المرء لا يمكن أن يكون مسئولا عن أحلام غير مسئولة.

وعلى خلاف كل ذلك الذى لم أتفوه بشىء منه لابد أنى بدوت أبلها معتوها وأنا أغمغم بحروف مضغومة وأجزاء من عبارات غير مفهومة تحمل كل المعانى والأسئلة والاحتجاج والاعتذار فى نفس الوقت. ولم أقو بخلاف ذلك على نطق عبارة أو كلمة وشعرت بأنى أختنق. خفض المدير نظارته لأسفل ورمق الأرض تحت حذائه بنظرة أسف شاملة ثم فجأة نظر إلىّ وكانت حواجبه تصعد وتهبط - فوق ثم إلى تحت إطار النظارة - فى قفزات متوالية.

سنجاب صغير

يبدو أن الليلة كانت طويلة جدا وتوحى بأنها لن تنقضى أبدا، لدرجة أن المرء يمكن أن ينسى خلاها التفكير فى النوم ويعتقد بأنه سيواجه بأصعب اللحظات، لكن يبدو أيضا أننى نمت قليلا وأنا جالس، رأسى سقط ببطء على جانب صدرى عندما سمعت طرقا طويلا على الباب، لم أكن أنتظر أى أحد أو أى شىء يجعل أى أحد يطرق بابى فى مثل هذا الوقت المتأخر، سألت بصوت منخفض: "من؟!"، أجاب مباشرة: "كابوسك!". فتحت الباب بوجل فرأيته لوحده فعلا، زيُّه الأزرق وجدِّيته وقلة اهتمامه بمظهره جعله يبدو كأحد عمّال الصيانة طلب من أجل إصلاح شىء فى المنزل ورغم أنه أتى ملبيا وعلى أهبة الاستعداد إلا أنه لم يصحب معه أى عدة، لم يكن معه شىء من كل هذه الأشياء التى يمكن أن تصاحب وجوده

فى الحجرة، باستثناء رأس صغير لمشنوق ظلت معلقة ليلة بأكملها فى سقف بسلك كهربائى يخص المصباح بال عليه الذباب، فيما ظهر من خلفه نمس صغير أطلق ساقيه للريح، جرى النمس وأنا من وراءه أطارده لكنه زاغ منى فى ظلام المزارع، أدركت على الفور أن هذه الأشياء القليلة التى اصطحبها معه لم تكن تخصنى لكنها تخص ذكرى قديمة لأخى الذى سافر فى زيارة عمل لمدينة فى أحد الأقاليم لكنه استقر هناك ولم يعد، كان أخى هذا يصحبنى فى مشوار يخصه وحده خلال نهار الصيام فى رمضان، وأنا كنت صبيا، وكان لابد أن يتركنى فى مكان ما من الشارع، لكنه اقترح أن أبقى فى محل للحلويات، قلت له وأنا أصطنع الشهامة: "لكنى صائم!" فأخذ يقنعنى بأن أتخلى عن تعذيب نفسى بلا فائدة لأن الله لن يقبل صيام صبى مهما كان، وقال: إنه لا وزر علىّ مطلقا لو أفطرت فى هذا اليوم الحار على الحلويات، سألته ببراءة: "وهل تأكل معى؟!" فقال بخبث: "لكنى كبير!"، ولم تقنعنى إجابته فتمسكت بصيامى، لكنه ضحك باستخفاف وتركنى فى محل الحلويات وقال لأحد ما بصوت عال: "هات له كل ما يطلبه!" ولم يقل ماذا يحدث لو لم أطلب شيئا، وأنا ظللت متماسكا لا أطلب أى شىء، حتى جاء الرجل وسألنى إن كنت أطلب فانهرت وطلبت وأنا أخطط للانتهاء سريعا من أكل الحلوى قبل أن يأتى فأستمر من ثمّ فى ادعاء الصيام. وفعلا أكلت بسرعة، لكن قبل أن أنتهى أتى الرجل مرة أخرى وسألنى إن كنت أفضل شرب العصير فوافقت على الفور، عندما جاء العصير كنت انتهيت من الحلوى ورفعت الأطباق، لكنى لم أنته من العصير حتى رأيت أخى عائدا، سأل الرجل عن الحساب قبل أن يصل

إليَّ، ويبدو أن الفاتورة كانت باهظة لأن ذلك بدا عليه بصورة ما، وأنا سألته ببراءة مصطنعة بعد أن خرجنا من المحل إن كان العصير يفطر الصائم، فى إيحاء بأنى لم أتناول أى حلوى، معتقدا أن الجهل المفضوح قد يشفع لى فى صمته على قلة صيامى، ثم استطردت لأنه لم يجب عن سؤالى بكلمة شاكيا له من رجل الحلويات وإلحاحه علىَّ ضرورة طلب شىء، وأنى اضطررت خوفا من الطرد من المحل لطلب العصير، واضطررت لقضاء كل هذا الوقت فى انتظاره لشربه، وهو لم يعلق بأى شىء على كل ما أسلفت، فقط راقب كذبتى وهى تتضخم ثم قال باترا: "أنت تتكلم كثيرا!". ظللت صامتا حتى عدنا إلى البيت ولم أسأل نفسى أو أسأله: "أين كان عندما تركنى وذهب؟ ولماذا لم يصحبنى معه إلى المكان الذى ذهب إليه؟". لكننا ما إن وضعنا أقدامنا فى الدار حتى أخذ يسخر من ضعفى وقلة صبرى على الصيام، وهو ما جعل رأسى يترنح بمشاعر المغدورين والمطعونين من الخلف، سبب ذلك شرخا طويلا فى علاقتنا الأخوية، شرخ ظل يتسع ويخشن ويتجوف كشرخ فى ساق شجرة يجف نسغها، وأطل وجه الكابوس من هذا الشرخ البعيد ضاحكا فجأة، بدا كسنجاب صغير من هذه السناجب المظللة العيون التى تظهر فى الرسوم المتحركة، نظر إلىَّ بعينيه الصغيرتين الخرزيتين ثم اختفى فى الشق وتسلق الشجرة من جوفها للأعلى عاجنا من دقيق ذاكرتى الذى أصبح نهبا مهولا ومشوشا صورة أخرى. فى الأعلى كان هناك نبق كثير، وأنا أسفل الشجرة أنتظر، كنت أرتدى بدلة ضابط كاملة أتى بها أخى هدية لى من بورسعيد، وقال لى الكابوس: إنه سوف يصعد ليحضر لى النبق الذى

أحبه، وأنا وقفت أنتظر، مجرد وقوف وانتظار، لم أفعل شيئا من قبل ولا من بعد، وما إن امتدت يده على أول نبقة وجرى ريقى حتى رأيته طفلا صغيرا فى مدرسة "المعسكر" الابتدائية، ثم سقط الطفل من فوق الشجرة على ظهره، كانت سقطة فظيعة حطمت له فقرتين فى سلسلة ظهره وهددته بكساح نجا منه بصعوبة، وأنا الذى كنت فرحا ببدلتى الضباطيه منذ لحظة واحدة نلت توبيخا عنيفا كاد يتحول إلى ضرب من المشرفة الاجتماعية، لم أدر وقتها ما هو ذنبى أو كيف كنت سببا فى صعود الطفل للشجرة وفى انهياره من أعلاها، هو الذى قال وهو الذى فعل، لكن المشرفة الاجتماعية كانت متأكدة من مسئوليتى حتى أنها طالبت بفصلى نهائيا من المدرسة، لم أفهم وقتها كيف حدثت هذه المخايلة فى ذهن المشرفة بين الزى الطفولى الذى كنت أرتديه وبين سلطة الضباط الآمرة، لذلك هى تخيلت أنى من أمرته بالصعود وأنه استجاب - شأن كل من يستجيبون لأصحاب الأزياء الشرطى - ناسية أن الناس عندنا ما عادوا ينتظرون حتى يأمرهم هؤلاء بأشياء ولكنهم يفعلونها من تلقاء أنفسهم مدفوعين بمشاعر الأنذال التى تشبه الإحساس بالعار. ذهبت المشرفة والناظر وذهبت معهم، هرب السنجاب الصغير وذهب الأشخاص المتجمعون معنا، وذهب الطفل بفقراته المكسورة فى الإسعاف، ولم يبق معى سوى الكابوس، كان هناك يتمرغ فى الأرض وحيدا وجريحا، ومشاكسا أيضا؛ لأنه لم يكن يهتم بكل هذا التراب الذى علق بزيِّه الرسمى.

مجنون الشُرفة

يقف فى زاوية الشرفة كشبح يمتطى مقدمة سفينة تبحر فى الظلام على خلفية تعلق فيها القمر المستدير بستار السماء، يرتفع صوته بغناء له نغم غريب، ليس غناء حقيقيا كالذى نعرفه، لا تفهم منه كلمة واحدة، لكن صوتا شبيها بالغناء لهذه الدرجة لا يمكن أن يصدر إلا عن مشاعر إنسانية عميقة، يحدث هذا خصوصا فى ليال الصيف، لكن فى أمسيات الشتاء الطويلة تعلو همهمته المتوترة، تتكاثف وتتصاعد كأنما بفعل قانون موسيقى خفى لتصبح نواحا، والنواح يلد صراخا، ويتواصل صراخه لساعات، فى ليال أخرى بالذات التى يبلغ فيها القمر استدارته يصدر عنه عواء يشبه عواء الكلب المضعضع فى حنينه لأصول قديمة متوحشة، وعندما يبلغ ذروته لا يمكن تمييزه عن عواء ذئب حقيقى جائع مرة، ومرة مريض،

ومرة حزين أو متألم، ومشتاق وثائر ومهتاج و..و..وذات ليلة لا ينساها أحد ظل يتوجع طيلة الليل، حرم الكثيرين من النوم لقرب الفجر حتى صدقوا أن توجعه صادر عن مرض جسدى يذيقه الألم فعلا.

كل من يسكن - أو سكن يوما - هذا المربع الصغير الذى تتشكل منه مداخل ومخارج جيرته يشتكى من هذه الظاهرة الصوتية الليلية فى الصباح، لكنها ليست شكوى حقيقية ولا يتبعها أبدا أى تحرك تجاه جهة مختصة أو غير مختصة، وعندما يأتى المساء يلجأون فقط إلى الحيل التى أتقنوها، أهم هذه الحيل رفع أصوات أجهزة التليفزيون داخل البيوت وأجهزة "الووكمان" ذات السماعات تسد الأذان والتى أخذت تنتشر - كأنما بالعدوى - فى الشرفات. بل إنه مع الوقت وتنامى حس الألفة بوجوده الصوتى لم يعد أحد يسأل: إلى متى يمكن أن يستمر هذا الوضع؟ ويبدأ البعض - خصوصا من المراهقين والزوجات والأطفال - يفصحون عن مشاعر أخرى بخلاف انزعاجهم من الصوت، منهم من كان يمكن أن يعجب بصوته وأغانيه رغم أنه أنصت لها دون أن يجنى من إنصاته أى فهم، ومنهم من كان يتلذذ بالإنصات إلى عوائه الذى يدغدغ فى النفوس مشاعر غامضة ورهيبة لكنها حاضرة منسية طيلة الوقت، ومنهم من دخل الصوت حياته من باب العادة الواسع فبات يفتقده ويسأل عنه لو تأخر ذات ليلة.

فى هذه الليلة كان يغنى غناءً خافتا وأسيانا، يرتفع حتى يلامس الصراخ وينخفض حتى لا يكاد يسمع بالمرة لكنه احتفظ طيلة الوقت

برنة الشجن التى تذكر بوسوسة شجية لخلخال فى قدم مسافرة لمسافة طويلة. وحين انتهى لم يكن ما سمعوا هو الصوت المألوف لاصطكاك ضرفتى شيش الشرفة كما يحدث وهو يغادرها كل ليلة، كان الصوت - صوت ارتطام آخر - مكتوما ومنبطحًا. ثم هبوا بعد قليل على صراخ عابرين اصطدموا فى الظلام بجثته الملقاة على الرصيف. على أنوار الكشافات القوية المتكاثرة من حول الجثة اكتشفوا أنه لم يسبق لأحدهم أن رآى ملامحه عن قرب أو تعرف له شكلا غير شكل شبح أسود كان يقف فى زاوية الشرفة كمن يمتطى مقدمة سفينة تبحر فى الظلام.

لقاء مع العجوز

عندما جئت وسكنت هنا كان الكون قد استكمل دورة زمنية كاملة..

"السبع دروب"

أهلها يعرفون أن التسمية لم تطلق على دروبها السبعة؛ لأنهم سبعة فقط، بل لأن كل ما يبدأ فى الحدوث فيها لا يتوقف إلا فى اللحظة التى يبلغ فيها هذا الرقم، الأفراح سبعة، والوفيات سبعة، المواليد سبعة، المعارك الكبرى بين عائلات الدروب سبعة، الحرائق سبعة..وكل دورة من سبعة تستغرق عاما يزيد قليلا أو ينقص قليلا، بعده تتوقف الأحداث، يهدأ الكون شهورا، تقف حركة الأرض، يدخل الزمن شرنقة الاعتيادية والرتابة، مهلة قبل أن يعود كل شىء إلى التجدد.

خلال المهلة كنت أذهب إلى عملى وأعود منه، أنام وأصحو قبل غروب الشمس، أتناول طعاما بين المغرب والعشاء، بعد صلاة العشاء أقطع الدرب الذى أسكن فيه لأكون على مقهى يطل على الشارع. هناك تعرفت على معظم جيرانى من أهل الدرب الذى أسكنه وأبناء الدروب الأخرى، سمعت عن آخرين كثيرين، رجال ونساء، أحياء وأموات. هناك أيضا تعرفت على أقرب الجيران من بيتى، لسوء الحظ لم يكن الجار من أهل العالم الذين نعرفهم، كان من أهله الذين لا يعرفهم أحد، عفريت يطلقون عليه "العجوز القوارة".

العجوز عفريت بلا تاريخ، لا.أحد يعرف شيئا عن تاريخه سوى جدة عجوز تسكن البيت المقابل لبيتى، تزعم الجدة أنها متزوجة من عفريت مسلم اسمه فتحي، كان فتحى يمر بالليل طائرا فى السماء التى تعلو بيتها وسمع بكاءها، بكاؤها كان يتجدد كل مساء حتى هذه الليلة التى جاء فيها فتحى، وسر بكائها هو ما تلقاه من قسوة على يد زوجة ابنها، فتحى رأف بحال الجدة وتزوجها

– وكل ما أحتاج أندهه أعيّط..

أقول لها مداعبا:

– طيب هو عياطك كان بسبب إيه!!

تتهرب طالبة منى الصمت:

– هس هس

وتضع يدها على أذنها لأن فتحى جاء على غفلة ويكلمها.

قالت لى الجدة: إن العجوز القوارة ليست من سكان السبع دروب، وأنها امرأة شقية قذف بها الأذى إلى التنكيد على زوجها،

وقذف التنكيد زوجها إلى الموت، وقذف موت زوجها وانقطاع رزقه بها إلى العوز، وقذف بها العوز إلى التسول، وقذف بها التسول إلى هنا، وماتت العجوز القوارة فى ليلة صقيع جائعة على رصيف من أرصفته.

- مكان عامود النور اللى قدام بيتك تمام

هكذا يؤكد الباقون مكان العفريت، لكن لا أحد يؤكد تاريخه، صمت الباقين يتضمن تشكيكا واضحا فى فتحى زوج الجدة ومصدر الرواية، أحيانا يصفون الجدة بأنها عجوز مخرفة، لكن لا أحد يجرؤ على التشكيك صراحة فى الرواية التى تتصل بالقوارة؛ لأن القوارة مصدر رعب قديم ومتفق عليه.

تظهر دائما فى ليالى الشتاء، فى الليالى التى يشتد فيها الصقيع تزداد فرص ظهورها، ويزداد الناس تجنبا للمرور بمكانها المعروف، تلتف فى عباءتها السوداء بقامة لا ترتفع عن الأرض أكثر مما يزيد قليلا عن المتر، لها قتب فوق ظهرها، شريرة كل همها أن تخيف الآخرين فى الظلام، لو لم ينتبه المار إليها نادته باسمه، ربما قذفته بطوبة، إذا جرى تجرى وراءه، المهم أن ينظر المسكين إليها، وأن ترى هى على وجهه علامات الرعب، يقولون: إن بعض من رأوها أصابهم الفزع بسكتة قلبية، وبعضهم أصيب بالعمى، أكثر من رأوها كما يؤكد الناس لم يعودوا كما كانوا أبدا وظل الرعب مسيطرا عليهم ليوم وفاتهم.

لسوء الحظ لم تظل العجوز القوارة تعاود الظهور، انقطعت عن ملاحقة الناس فى مكانها منذ زمن طويل، ربما ذهبت إلى مكان

آخر، أو ربما كان عامود النور الذى غرسه رجال البلدية فى مكان جلوسها المفضل فى ليالى الصقيع هو السبب، استراتيجيتها الأساسية كانت أن تظهر للناس فى الظلام فجأة، ربما يكون عامود النور هو الذى أفسد كل شىء.

ذات ليلة خرجت إلى الشرفة، كان الصقيع على أشده، عامود النور يرسل نحو عينىّ ضوءه القريب الحاد، أتذكر أنى منذ جئت هنا لأشاهد الشقة أزعجنى القرب الغريب للعامود من شرفتها، لا سبب يبرر هذا القرب فى اتساع الشارع أو وضع الرصيف، هل هى العجوز القوارة من دفع الرجال إلى تعمد غرس العامود فى مكانها المفضل، بكل دقة وبهذا القرب من شرفتى، ربما، لكنى تناولت مقبض المكنسة الخشبى، بضربة واحدة مصوبة كسرت مصباح العامود، غرق هذا الجزء من الدرب أمام بيتى فى ظلام لا تعكره سوى أصداء إضاءات المصابيح الأبعد، أتذكر أيضا أنى فكرت فى فعل أمر كهذا، لأتمكن فى ليالى الصيف من الجلوس فى شرفتى مستريحا دون أن يزعجنى ضوء قريب من عينى إلى هذا الحد، لكن ما أبعد الصيف ولياليه، جلست وأنا أحتضن بذراعى سور الشرفة وذقنى على كف يدى المدور كالفنجان.

فى ليلة قديمة تشبه هذه، كنت ساهرا وحدى على حاجز الجسر الخشبى الذى يقع أمام بيتى القديم، ولدت فى هذا البيت وكبرت فيه، عذبتنى خلال طفولتى حكايات الجنية التى تسكن أسفل الجسر، فى الأغلب كانت الجنيـة لذكرى واحدة من النساء الغريقات اللواتى تحتجز جثثهن ركائز الجسر المعدنية، يجد الناس ذات صباح جثة

امرأة ملفوفة بجوال خيش، وحين يرونها يعلمون أنها جريمة شرف أخرى من التى تقع على فترات طويلة فى النواحى ويتلقفها فرع النهر الصغير.

ظل خيال هذه الجنية يعذبنى حتى قررت مواجهته، فى هذه الليلة القديمة، لم أصب بشىء سوى بعض الأنفلونزا، اعترانى الخوف فى البداية، لكنى بعد ملل الساعات الطويل كنت أحدق بقوة فى صفحة الماء المندفع فى سكون الليل بهدوء مسموع، قرب الفجر أخذت فى الصفير بصوت عال حتى أنبه الجنية النائمة، أشرقت الشمس وأنا أرقص على صوت صفيرى، لكن من رآنى فى هذا الوقت المبكر عزى ما رآه إلى جذبة خفيفة من جنية الجسر، كانت جنية طفولتى المعذبة أكثر من نائمة، بل أكثر من ميتة، كانت وهما حادا مفزعا ذا شعبية جارفة.

تنبهت من نومى وذقنى لا تزال غارقة فى فنجان كفى، حدقت أسفل عامود النور بعينين ناعستين مستديرتين من الظلام، لم أتمكن من رؤية شىء أبعد من أطراف أصابعى، لم تكن العجوز القوارة هناك، وأنا أستعد لمغادرة الشرفة رفعت بصرى، رأيت عينين كبيرتين تطلان بلا جسد ومعلقتين فى الظلام.

بلاغ كاذب

ارتفعت السارينات وتداخلت، سيارات الإطفاء تدخل الميدان الصغير من ثلاثة جوانب، لا يفلح المرء فى دخول ميدان صغير من أكثر من جانب واحد فى المرة الواحدة، تكرار دخول ميدان صغير من ثلاثة جوانب لابد أن يؤدى إلى مزيد من الجهد، مزيد من الوقت، إلى تكرار شاق، الدخول من ثلاثة جوانب فى نفس الوقت جهد خيالى مستحيل، تخريفة ليل مبكرة، أو أمر يتجاوز قدرات الصوفى العادى، يدخل فى اختصاص الأقطاب والأبدال، أو كائنات أخرى تمتلك أرواحا كثيرة كالقطط، الليلة حجرة الخيال ضيقة..

الكل يلاحق سيارات الإطفاء الضخمة ذات السرعة الكاسحة والأضواء الحمراء المتبدلة والسارينات التى تتردد كالزلازل القوية فى هدوء الليلة الصيفية ذات النسمة الباردة. الجالسون أمام بيوتهم

يمطون رؤوسهم ويغادرون أماكنهم ليدخلوا الميدان القريب، رجل يجلس على جانب باب يرتكز بكعب رجله على جبس ساقه المكسور ليشب بقامته كلها للأعلى، ساق مكسور يعنى على الأقل شهر يرتاح فيه المرء، يقطع بالنوم حر النهار ويجلس طيلة الليل على مقعد منخفض بيمين باب البيت فوق الرصيف يتشمم رائحة النسمة الباردة، لكنه يعنى أيضا حرمانا من حوافز الشهر، وقد يعنى أيضا حرماناً من راتب هذا الشهر، من يدرى إلى أين تتجه اللوائح الجديدة، المتبحرون فى هذه الأمور يدهشون الناس ويوحون لهم أنهم قضوا وقتا طويلا بين صفوف ملفات رمادية يتشممون روائح تشبه رائحة نشارة الخشب، الآخرون الذين يندهشون..يندهشون فعلا لكنهم يكونون فى كل مرة مضطرين إلى إلقاء نفس الأسئلة التى سبق أن ألقوها ونسوا إجاباتها فيما بعد بلا أى دهشة. الناس القليليون فى هذا الوقت المتأخر من الليل يتجمعون الآن، يظهرون فجأة كأنما خرجوا من شرايين سرية تربط الميدان الصغير بعالم المدينة الصغيرة، آلاف بل ملايين من الشعيرات الدموية يمكنها أن تتجمع فى مساحة لا تتجاوز السنتيمتر المربع، يحدث مثل هذا الأمر تقريبا مع كل الميادين العتيقة التى شاهدتها فى حياتى، هناك أيضا نساء، واحدة تشبه زوجتى فى ميلها على كتفى عند الإفضاء بأمر مضحك قرب أذنى، تميل على أذن خطيبها كما يلوح، امرأة أخرى تشبه فى مشيتها المتقافزة خطيبتى السابقة التى كانت تمتلك جسدا بمرونة لاعبة جمباز، لا بد أنها بدينة بعد هذا العمر، أو أنها قضت فى حادث سير، نظراً لأنها كانت لا تسير فى العادة منتبهة،

الحوادث لازمة تقريبا فى حياة كل الناس، إنها تصنع مسارا مختلفا فى يوم لا يختلف عن كل الأيام، تجعل للألفة والاعتياد معنى جديدا كامنا، الحادث مهم وليس مهما أن يكون سعيدا أو حزينا، مفجعا أو يؤسف له أو غير كذلك، أصبح مهما فى حد ذاته، الأحداث نادرة، والسعيد منها عند محطات معينة فى الحياة يصبح صعب المنال أو ليس متصورا، هناك رجل فى جلباب يعدو من البداية المقابلة للميدان تجاه سيارات الإطفاء، سيارات الإطفاء توقفت، يسأل الإطفائيون المنتشرون فى الأرجاء ببزاتهم الرسمية عن مكان الحريق، ويسأل الناس المنتشرون حول سيارات الإطفاء رجال الإطفاء عن مكان الحريق، وثمة دخان كثيف ينبعث من ماكينة شواء قريبة.

بلحة

أيتها المسكينة! ما الذى بيدى أنا أن أفعله حتى أتعذب بك على هذه الصورة المؤلمة؟..

أنت التى ارتبطت بى منذ مجيئى للسكن فى هذا الشارع كقدر لا فكاك منه، لم أذهب إليك بقدمىّ لكنك أنت من تقتحمين عزلتى بجلباتك. أنت من اختار أن يسقط فى بالوعة إغماء تحت شرفتى فى نفس اليوم الذى انتقلت فيه إلى هذه الشقة. اعتقدت أنا أنك منحت لى الفرصة كى أقدم نفسى إلى أهل الشارع كساكن يمتلك من الشهامة ما يجعله جديرا بالشقة والجيرة والحى. لكنى ومنذ النظرة الأولى إليك وإلى صديقتك التى تمددت بجانبك على الرصيف استوعبت طبيعة ما أنتما عليه من إغماء كيميائى. هذا الإغماء الذى يسببه برشام "الصراصير" المشهور عند الإفراط فى تناوله صحبته بلاوٍ أخرى. قالها أحد الواقفين:

– سقوهم برشام ولقحوهم هنا!

هنا تحت شرفتى التى أصبحت مكانا مفضلا ومختارا، كأنما عن عمد، لكل جلباتك اللاحقة. بدءاً من هذه المرة اختفت صديقتك ذات الجسد المثير الذى يشتهى بسهولة وبقيت أنت.

فيما بعد زودنى برديسى ببيانات وافية حول كل مجريات حياتك الهامة، هذه الأشياء التى يجرى تداولها يوميا، وباستهزاء تقريبا، حول الحيوات غير الهامة التى تشبه حياتك. بداية بأبيك الذى مات محششا أيام الحشيش الذى جعله المرحوم السادات رخيصا كالتراب ورغيف العيش، ثم أمك التى تعبت من الجرى عليك وعلى إخوتك فقررت بعد سنوات أن تكتفى بما صنعت من أجلكم وأن يحمل كل منكم عبأ نفسه.

لم أهتم بسماع مثل هذه الحكايا التى رخصت فى أذن الناس بفعل تداولها بوفرة فى الصحف والقصص الواقعية وعلى الأفواه إلا بعد وجودك الثانى تحت شرفتى، وكالمعتاد مصحوبا بالجلبة. لم أر من المشهد إلا آخره، شاب غريب الهيئة منكوش الشعر، عرفت فيما بعد أنه أخوك، يخلع الحزام العريض القاسى الذى يرتديه على بنطلونه الجينز المتسخ المخرق وينهال على عودك الرفيع الذى ينثنى فى موضع الضربة باستسلام مزعج، دون أن ينبس فمك بآهة واحدة، صرخة، حرف، كنت تنثنين فقط وتنفردين كأنما تهيئين جسدك لضربة الحزام القادمة، أوقف الشاب تاكسيا زجك فيه كما يزج المرء بقطعة روبابيكيا فى دولاب قديم مزدحم، انصرفتما.

فيما بعد سألت برديسى الذى بدأ الحديث عنك هكذا:

– ده أخوها يا أستاذ..غاير منها..غاير منها والله!..

الغيرة سافلة هكذا يؤكد برديسى، فأنت يا بلحه ومنذ يوم عملك الأول كنت "الفرود" بين إخوتك الأرزقجية. أمك تعرف ذلك، وأخوك يعرف، وإخوتك البنات، والجميع تجاهل الوضع حتى اليوم الذى قررت فيه الاستقلال عن إدارة أمك للـ.. مسائل، وهكذا "سمّحت" فيك المرأة وحكت لأخيك بعد أن لم يفلح التهديد بذلك معك.

– قل لى يا برديسى هل تحبها فعلا؟!..

ويجيب برديسى مبتسما بثقة:

– مش حكاية حب!!

– إعجاب!!

يبدو محاصرا فيفلت:

– الحاجات دى مش بتاعتنا!

فى المرة التى هربتما فيها أنت وبرديسى وقف حال الورشة، اشتكى لى الأسطى صلاح – فيما بعد انكشاف الأمر – من "جنون ابن الحمار" الذى جعله يهرب مع واحدة "...." مثلك. وهل تتصورين يا بلحه ما بذلته أمك فى البحث عنك من جهود مدهشة، هذا أقل ما يمكن أن يقال، ولو كان برديسى هنا لتحدث معى عن الفرخة التى تبيض لأمها كل يوم بيضة ذهبا وبلا تعب، ولم أرى غرابة فى الأمر، لكنى أؤكد لك أن الأمر مختلف، هذه المرأة أمك كانت تبدو تماما مثل أنثى فقدت فرخها، كانت حزينة العينين، مخذولة، تدور فى كل مكان كنت تترددين عليه بشراسة جريحة، يعترى الذهول نظراتها كل حين وعبارة واحدة تخرج مخنوقة من حلقها وتترجع على مسمع الجميع:

"ترجع وإن شا الله تموت بعد ساعة"!!

وهل تتصورين يا بلحه كيف - أو لماذا - كانت أمك تتوقف فى نفس المكان كل مرة لتلتقط أنفاسها..نعم، تحت الشرفة!..

كل يوم تقريبا كنت أراقب قدومها من بداية الشارع وأتتبع خطواتها وما يحمله إلىّ الهواء من ندف أحاديثها المتناثرة عنك مع الجيران، بكل قسوتها الحزينة كانت تقول: لو شفتيها يا بنتى هاتيها من شعرها وابعتى لى..لو شفتيها يا حاجه احبسيها فى أوضه ضلمه.. اكسرى ضلعها يا أختى ولن أداويه..

وأظل أتتبعها بعينىّ مترقبا هذه اللحظة التى تأتى حتما حين تقف أسفل الشرفة لتكلم أحدا أو لتلتقط أنفاسها أو لتحدق فى الاتجاهات المختلفة. لقد أضر هروبك ببرديسى كثيرا يا بلحه، خوفا من أخيك ومن الآخرين لم يعد بعدها أبدا إلى ورشة الأسطى صلاح، لكنه فى المرة الوحيدة التى صادفته فيها على القرب من شارعنا حكى لى كل ما حدث معكما، استأجر شقة فى الخامس فى أحد البلوكات المتطرفة لمساكن "كيمان فارس". هناك حيث كان يتركك ويخرج ليلتقط رزقكما وليعود إليك مع غروب الشمس فلا يفارقك أبدا قبل طلوعها. حكى لى أيضا كيف استطعت أن تشعريه بسعادتك التى كان هو أيضا يشعر بها، وأنه حتى اللحظة التى عاد فيها وفتح الباب ولم يجدك لم يظهر له أثر منك يشير إلى أن شيئا مثل فراقك منه يمكن أن يقع، يجزم برديسى أنه لم يكن لديك أية نية فى الهروب قبل اللحظة التى هربت فيها فعلا، وأن نية الهروب لو كانت موجودة عندك قبل حدوثه وبأى قدر لكان قد شعر بها، لكنه لم

يكن حانقا عليك فى هذا الوقت، بحث عنك هو الآخر كثيرا، حتى أنه صادف أمك خلال بحثها فى أماكن عديدة، وقال: إنك مسكينة فعلا.

ربما لم تعرفى بعد ذلك أبدا ما فعلوه فى برديسى بعدما كشف أحدهم أمركما خلال تحريات الشرطة، عذبوه فى القسم يومين بليلتين حتى يعترف لهم بمكانك، لكنه لم يكن يعرف. ولم يؤلمه عذاب القسم أكثر مما آلمه أنه لم يكن يعرف وأن إنكاره لك كان إنكارا حقيقيا ولم يكن كذبا من أجل حمايتك. برديسى أيضا يعرف أن هروبك منه ربما كان خوفا عليه مما يمكن أن يحدث بعد انكشاف الأمر فى العاجل أو فى الآجل، كان يقبل هذه المخاطرة والأكثر من ذلك أنه كان يقبل مخاطرة الزواج من امرأة لها مثل سمعتك وماضيك وكان يفكر فى هذا الأمر كثيرا إبان هروبكما ومن قبله، هو قال لى ذلك. إنه يعرف كم سبَّب لك من مشكلات خلال علاقتكما الطويلة، أتذكر أنا واحدة منها، أيضا فى مناسبة من مناسبات أسفل الشرفة. رأيتك أنت أولا، كنت تقفين على بُعد خطوات منهم، أربعة شباب أو خمسة يتفاوضون مفاوضة عجيبة، كان العنف فيها يقترن بالقسوة والمجاملة.

بالود بالشتائم القذرة، وكلما حاولت أنت التدخل، كان أحدهم يتولى صفعك وشتمك ثم يأمرك ألا تتدخلى أنت يا بنت الـ...، لم أفهم أنا طبيعة ما يحدث بالضبط، كانوا يريدون جميعا اصطحابك، وكانت بينهم جميعا حسابات وذكريات كثيرة تدور فى هذا النطاق، وطالت المفاوضة بصورة لم تجعلنى أدرك التسلسل الذى قاد إلى هذه النهاية، حين أخرج أحدهم مطواة من جيب بنطلونه الخلفى،

فتحها وحركها بمهارة لتمر على وجهك وتصنع عليه نصف قوس مقطوع قرب الشفتين، سمعت صراخه وصراخك بعدها، كان يقول لك:

- وهو برديسى أحسن منى يا بنت الـ"..." عشان تخرجى معاه وأنا لأ!!

ثم التف الباقون من حوله وحجزوه عنك، وأخرج أحدهم من جيبه عدة جنيهات دسها من فتحة القميص في صدرك، وورقة بها عنوان تتوجهين إليه في هذه الليلة دسها في يدك، ثم صفع وجهك الباكى وهو يأمرك بالرحيل والابتعاد فورا من وجوههم، بعدها مسح الدماء التى التصقت من خدك على يده.

أنت تعرفين أن برديسى يحبك يا بلحه، وأنه سيواصل البحث عنك لوقت طويل، وربما دله أحد ما على مكانك، عندها لابد أن تقررى أمرا ما بشأنه، ولو لم يجدك برديسى فقد تعثر عليك أمك، ووقتها ستقعين - وأنا معك - في عذاب قد تعلمين أنت مداه، لكننى أنا لا أعلمه. يا بلحة..لماذا لم تتوقفى كالعادة تحت الشرفة واختفيت بعد خطوات أسفلها لأراك بعد دقائق تقفين على بابى وتطالبين بالاختفاء؟!

دفءٌ من أجل نبيلة

فقدت نبيلة دفئها مرة واحدة ثم لم تسترجعه أبدا..

هذه المرة القديمة حين فقدت الرجل الذى أحبته طويلا، كان حبا عذريا لفارس أفرغت على صورته الخيالية أساطير السحر التى تتخذها الذكورة فى خيال مراهقة. حدث هذا الأمر عبر ساعات طويلة من الانتظار، ولو جاز لنبيلة أن تسمى الحب وقتها لسمته هكذا: انتظار، كانت تنتظره طول الوقت، فى كل مكان، فى شبابيك بيتها المطل على شارعين وعند الباب وفوق السطوح، منذ الصباح وحتى غروب الشمس، ترصد طلاَّت الفارس الذى لم يكن له طريق آخر إلى الشارع الرئيسى غير الذى يمر ببيتها، أما لماذا وقعت نبيلة أسيرة فارسها المار بالذات فهو الأمر الذى لا ينتظر أن توجد له إجابة عند مراهقة، وربما لا يجب أن تنتظر له إجابة على الإطلاق،

فالفارس الفقير، المؤدب المتدين، قليل الأقارب، ليس هو الشخص الذى يمكن أن تعول على الاقتران به ابنة راقصة رغم كل صفاته هذه أو حتى بسببها. عند الفارس كان ثمة حاجز نهائى لم تخترقه أبدا خيالات نبيلة فى الحب.

فقدت نبيلة فارسها بالطريقة الاعتيادية حين أعلن عن خطوبته فاستمعت للنبأ واجمة، ثم سارت بهدوء إلى المطبخ لتتناول سم الفئران وتنتحر، وحين تم إنقاذها سُئلت عن ظروف تسممها وعن متسبب فيه فأجابت:

– منى حسين!

طبعا خطيبة الفارس، غير أن الحيلة غير المرتبة فشلت فى الإيقاع بمنى بقدر ما نجحت فى إشهار حب نبيلة الجنونى أكثر.

ورغم كل ذلك تزوجت نبيلة شابا لا تقل ممكنات فروسيته عن ممكنات الفارس القديم، بل زادت عليها كثيرا فى حاجز نهائى آخر لم تخترقه أبدا خيالاتها فى الزواج.

الزوج كان مدرسا فى التعليم الإبتدائى، لم يكن بينهما فارق ملموس فى التعليم فكلاهما تحسب شهادته على فئة التعليم المتوسط، رغم أن دبلوم المعلمين المتوسط الذى حمله الزوج يزيد بعامين عن دبلوم التجارة المتوسطة الذى تحمله نبيلة، غير أن ذلك لم يصنع بينهما من الفارق ما صنعه بعمق ماضى أمها الراقصة، هذا الماضى الذى لم يكف عن الدوران فى أرجاء البيت الكبير الذى يسكنه أهل زوجها مجتمعين ويخص نبيلة وزوجها شقة فى أحد أدواره الخمسة.

أكثر ما قادها إلى الصراخ فى هذه الآونة كان زوجها عندما يحنى رأسه فى صمت كل مرة يسمع بأذنيه معايرتها بأمها، وهى حاولت كثيرا استفزازه ضدهم، أو حتى ضدها هى، بالصراخ فى وجهه:

– وليه اتجوزتنى طيب؟!

لولا إقلاع أمها عن مهنتها المشينة لما كان فى وسع زوجها أو أحد من أهله أن يوافق على الاقتران بها. وأمها بعد أن كفت عن الرقص أذهلت الجميع بما هو أكثر بشاعة، جنون أودى بها، بعد وقت من زواج ابنتها، إلى الزحف على يديها وركبتيها فى الشوارع المزدحمة، زحفا فشلت فى إيقافه كل أساليب العلاج بما فيها الضرب والتعذيب والحبس.

لم يكن لجنون نبيلة كجنون أمها أى أعراض أو أسباب مسبقة – كالرقص مثلا – سوى التشهير بأخوة زوجها لاعتداء جنسى جماعى عليها. قالت نبيلة قولها هذا فى جمع كبير، صارخة، منفوشة الشعر، مشعثة الملابس، على وجهها هيئة نوم واضحة، لكنه نوم من النوع الطبيعى وليس من النوع الآخر. كانت نبيلة تجرجر ذيل "جوب" بيتى قديم ومن نوع منقرض يسمى "الماكسى" بدءاً من بيت أسرة زوجها وحتى بيت أبيها الذى تسكنه أم مجنونة وأخ ضرير.

طلقها زوجها، ثم نشر بدءاً من هذه الساعة أخبارا عن أعراض سابقة لجنونها كانت تلفيقا فى بعضها وإساءة تفسير فى بعضها الآخر. وكان طبيعيا ألا تروج كثيرا أخبار من هذا النوع تأتى من لسان زوج موتور يريد موازنة فضيحة لاقت رواجا لا يضاهيه أبدا

إخباره المشكوك فيه عن جنون زوجته، فضيحة أطلقتها نصف مجنونة كما يظهر للناس لكن النصف الآخر كان كفيلا بأن يجعلهم يتمهلون.

نبيلة هى التى ما لبثت أن أكدت جنونها الكامل باتهام مماثل للـ"شيخ محمد"، ولم يجد أخوها الضرير سبيلا آخر لمواجهة فضائحها سوى عصاه الغليظة التى يتوكأ عليها، كاد يقتلها بضرباته العمياء بين فزع الناس الذين لمهم الصراخ لولا انفلاتها المدهش بين الأجساد من رحبة البيت إلى خارجه، وسريعا ما تحول فزع جمهور الجيران المتفرج إلى دهشة عندما رأوا أمها المجنونة تزحف قرب سور السطح وتنادى على ابنتها بصوت صارخ ثم تلقى لها لحافا عريضا، ثم تحولت الدهشة لضحكات وهم يرون نبيلة تعود لتلتقط اللحاف الذى ألقته أمها من أرض الشارع، وتقريبا من تحت قدمى أخيها الضرير الساخط.

هذا اللحاف هو ما عاش لسنوات طويلة دفئا وحيدا لها على الأرصفة الضيقة ومنحنيات الحارات وبين الأقدام، كما كان غطاءً وحيدا أيضا لكل من ضاجعها بمقابل أو بدون.

لسعة كرباج سودانى

يحكى أن البنت خرجت إلى بيت أمها تحمل رغيفا..

ليس الرغيف فارغا وليس الرغيف محشوا، الرغيف هو الحيلة التى ابتدعتها البنات ليسربن بها البريزة الفضة ويهربنها خارج البيت كل يوم من أجل أمهن المريضة.

البنات خادمات ولسن خادمات، هن يعملن، ينظفن ويكنسن ويمسحن ويطبخن وينضربن ضرب موت كلما أخطأن وكلما لم يخطئن، يخدمن فى بيت أبيهن، بتوجيه وإشراف وصفع زوجة أبيهن القاسية.

زوجة الأب اسمها "أم سعاد" زوجة وقاتلة !

دست لزوجها السابق السم لما وقعت فى عشق زوجها الحالى، لا أحد يعرف الحقيقة يقينا، لكن ابنتها التى هربت منها لتعمل خادمة

فى العاصمة أكدت ذلك، الحقيقة محيرة عندما تتراوح فى أعين الناس بين السطوع وعدم اليقين. على الأقل، نظرة زوجة الأب صارمة بارزة العينين، نبرة صوتها مائعة تقسو كماء تدفق ثم تجمد فجأة، طولها وعرضها الفرعونيان، كل هذا أكد للناس أنها يمكن أن تكون قاتلة قبل أى شىء آخر.

أبو البنات الذى دق وشم "أم سعاد" بطول صدره من فرط عشقه لها تنتابه نفسه هذه الشكوك، كلما غضبت عليه بالذات، يحكى أنها صنعت له ذات ليلة باردة صينية كنافة غارقة فى السمن أهلة بالمكسرات، الرجل خاف وأخذ يتعلل ويتذلل حتى لا يقربها، وهى من غيظها وكى تغيظه هو وتؤكد شكوكه أيضا رمتها للكلاب.

وفى اليوم التالى خرجت البنت إلى بيت أمها تحمل رغيفا

البنت اسمها رقية صغيرة قصيرة نحيفة، ترتدى ثوبا متسخا مفتوحا عند الصدر، يستحيل تحديد ألوانه إذ يمتلك الثوب ألوانا كثيرة كبقع مفرطحة متداخلة الحدود وحائلة، كما أنه قصير تبدو منه عراقيب ساقيها السوداوين النحيلتين كشيئين متسخين يتوجب على الطبيعة إن أرادت أن تكون عادلة أن تستردهما للتخلص منهما أو إعادة صياغتهما من جديد.

رقية أصغر أخواتها البنات الثلاث، عدلية وفتحية وفيفى، ولدت بنت سبعة، وهو ما جعلها عصبية المزاج سريعة الانفعال، واستحال أن يظهر عليها مزاجها فى مناخ قمع زوجة أبيها، وبعد أن بحثت العصبية ونقبت عن وسائل الظهور قررت أن تسكن جسدها كله موزعة نفسها على سائر حركاته المتحفزة وثنياته الخفيفة ونظراته

الزائغة وحركة رقبته الرفيعة المتوترة.

البنات الأربعة يعملن بأمر زوجة أبيهن فى دار كبيرة ولا يرون أمهن سوى يوم واحد فى الأسبوع.

لكن فى اليوم الثالث عندما خرجت البنت تحمل رغيفا أمسكت بها زوجة أبيها

الرغيف وقع وتدحرجت البريزة وسألت المرأة البنت عن مصدرها فقالت: أعطانيها أبى، فكذبتها:

"أبوك لا يعطى برايز"

وعاقبتها بالضرب..الضرب الشديد

ويحكى أن المرأة لم تصادف بنت زوجها بالصدفة وإنما كمنت لها خارج البيت وتتبعتها حتى أمسكت بها عند باب بيت أمها ولذلك أرادت أن تعاقبها بالضرب الشديد، أخرجت لها من دولاب أبيها كرباج سودانى كان يستخدم فيما مضى لضرب العبيد، وكان للكرباج الطويل الرفيع عقد فى طرفه، تسبب لسعات مؤلمة وتترك اللسعات جروحا حارقة على الجلد وعلامات جنون - يقال - على الرأس، علا صراخ البنت واجتمع الجيران:

"مالك يا أم سعاد..وحِّدى الله..ماذا فعلت البنت..سرقت؟..بنت الـ"..."..لأ ربيها واضربيها كمان"

انفضَّ الجيران والضرب مستمر حتى كلَّت ذراع "أم سعاد" وقطعت "رقية" النفس.

لكنها فى اليوم الرابع خرجت تحمل رغيفا..

وحضر الأب فى اليوم السابع والبنت كطائر يذبح ويرتعش تحت

وطأة عذاب الكرباج ولم تكن جروح الأمس التأمت، سأل الأب وكأنه لم ير:

"ماذا تفعلين بالبنت؟"

جوهر علاقة الرجل بزوجته لم تكن تختلف عن جوهر علاقة الآخرين بها -كالجيران مثلا- منه عشق جنونى يعجز هو نفسه عن تفسير منابعه ومحو كامل فى سطوة شخصيتها القوية، ومن الجيران تقدير ممتزج بدهشة من كرمها الذى لا يصدق، كانت تخزن تموين جيش من السمن فى صفائح أسفل الأسرة والأرائك لتوزعها على الجيران بنظام لا يعرف الاضطراب، ومن الجميع كان خوف من قسوتها المخيفة وشائعات ماضيها المرعبة التى تدفعهم كلما تداول أحد سيرتها قائلين: "يا ساتر"

وفى اليوم العاشر خرجت تحمل رغيفا..

قالت أم سعاد لزوجها بنبرة كثلج النهر المتجمد:

"كده بقى تسيبنى عليها"

حبستها أسبوعا كاملا فى غرفة مظلمة تفتح بابها زوجة الأب وحدها لتضع إحدى الأخوات الطعام فى اليوم مرتين

وفى يوم تال..

سحبتها من يدها وركبت بها قطارا متجها للعاصمة، ذهبت بها إلى بنتها التى تزوجت من أحد مخدوميها وأصبحت هانم بعد أن كانت خادمة، استقبلتها البنت بصرخة غضب:

"عايزه إيه..موش كفايه عذبتى أبويا وسمتيه"

بعد كثير طيبت الأم خاطر بنتها، أكدت لها أن أباها مات ولم

يقتل، وأنه هو من عذبها بكسله وفقره، ثم طلبت منها:

"خدى البت دى..خليها عندك خدامة"

ثارت الابنة من جديد والأم طيبت خاطرها من جديد ثم تركتهما ومضت..

الابنة لم تكن توقظ "رقية" من نومها بركلة أو صفعة ولكن بمعلقة ساخنة لدرجة الاحمرار ومن أجل ذلك عادت "رقية" إلى بيت أبيها موشكة على الموت قبل أن تتم أسبوعا خادمة وبقت على ظهرها شهرا قبل أن يسترد جسدها دماءه وتتعافى.

ولما تعافت وجدت أن أمورا كثيرة تغيرت..

خرجت تحمل الرغيف لكنها لم تجد أمها هذه المرة، كانت الأم توفيت منذ أيام ولم تكتشف جثتها. وعادت البنت لتعيد لزوجة أبيها الرغيف وتحكى لأبيها وأخواتها كيف قضت الأم نحبها خلال إحدى نوبات الصرع التى كانت تعتريها.

وزوجة الأب عندما جاءها الموت بعد سنوات أوصت رقية - بالذات - أن تدفن فى قبر الأم المصروعة.

وبعد أن ماتت لم يجد بنات زوجها إلا صفائح السمن صدئة تحت الأسّرة وصفيحة محشوة على نحو لا يفسر بجوز الهند ويحكى أن البنات اعتقدن لما فاتحتهن "رقية" فى أمر الوصية أن زوجة الأب تريد مواصلة صب نقمتها على أمهن فى قبرها كما فعلت فى هذا العالم، وعليه رفضن دفنها بجوارها كما أوصت.

لكن رقية - بالذات - أصرت على تنفيذ وصية زوجة أبيها إصرارا عنيداً.

يحدث أحيانا

حينما صدمت دراجة منطلقة طفلا صغيرا توقع الكثيرون ما يمكن أن يحدث إلا صاحب الدراجة نفسه. كان شابا فى طريقه من مكان غادره يريد طبعا أن يصل منه إلى مكان آخر يقصده، لكن "فوفا" كانت على القرب والطفل الذى صدمته الدراجة كان ابنها "مصطفى"، وشهرته "ابن فوفا" ليس لأنه مجهول الأب أو يتيم ولكن تقديرا لحجم التأثير الذى تمارسه أمه فى الشارع.

اقتربت المرأة من صاحب الدراجة المنحنى على جسم الطفل الممدد على الأرض، كان يطمئن عليه ويساعده فى الوقوف وينفض التراب من ملابسه. لم يكن ما تسبب فيه الحادث من جروح للطفل يزيد عن كشطات لا يقطر منها دم، لكن "فوفا" لم تنتظر.

كانت تحمل بيدها ابنها الرضيع الذى لا يقل انتماءا إليها عن الصغير "مصطفى"، لكنها ألقته على الرصيف وعيناها تبرقان شرا وصاحت فى وجه الشاب بعنفوان الجنون وبصوت أخنف:

- ده مش مهم..المهم ده..الكبير!

طبعا أصيب الشاب برعب، لكن ذلك لم يكن هاما، لأنه فيما أعقب ذلك من دقائق طويلة كان قد تخلص من رعبه بل وأصابه شىء من الملل والشفقة والكثير من إحباط المحبطين واستسلامهم.

لم تكن "فوفا" مجنونة بصورة كاملة أو بصورة أدق بما يجعلها من نزلاء قسم الأمراض العقلية بإحدى المستشفيات، المشهور هو أن جنونها عرض مستمر لازمها من أمراض قديمة كالتيفويد والسحاء أصابتها فى طفولتها من جراء إهمال جدتها العجوز، وكانت الجدة مضطرة لإهمالها بحكم السن وبحكم إهمال ابنتها (أمها) لها، وكانت الابنة الأم مضطرة للإهمال بحكم زوجها الثانى، وكان زوجها الثانى مضطرا للمزيد من العداء "لفوفا" بعدما كبرت وأصبحت تطرق باب بيته انتقاما وتسأله كلما استقبلها:

- ازيك يا بن الكلب..أمى فاه؟!

فيما بعد انتقمت أم "فوفا" لابنتها على طريقتها، كانت تحرض أبناءها الذكور من زوجها الثانى على سرقة تجارته، وهو الأمر الذى اكتشفه الرجل بعد أن أفلس فطلقها..لكن هذه أمورا أخرى عرفها الشاب صاحب الدراجة كلها فى الوقت الذى امتد من الواحدة صباحا حتى ساعات الفجر الأولى، كانت الليلة صيفية وملائمة لفرجة الشرفات التى يمارسها جيران "فوفا" بقدر من الاستمتاع

يوازى ما لها من نذالة وبرود، حتى أنهم كانوا يقطعون الفرجة أحيانا - قبل أن يعاودونها من جديد - لتناول العشاء أو الرد على تليفونات عاجلة أو قضاء أمور بيتية أخرى، فيما الشاب ينتظر نجاح جهود كل من تدخل من أجل الإفراج عنه.

بدأت معركة "فوفا" مع الشاب الذى انتهى إلى التزام الصمت التام هكذا:

- شوف..معاك من ميه لميه وخمسين ألف..وفاضيين لمحاكم وأقسام وكل البلاوى!

وامتدت يدها فشدت صدر قميصه دون أن تفلته، كانت أحيانا تقترب منه أكثر لتمكن نفسها من إبدال كفها اليمنى لتريح اليسرى أو العكس، لكن ذلك كان يحدث فى ومضات سريعة حتى لا تمكن خصمها من الفرار أو مجرد التفكير فيه، ساعدها كثيرا ما لاحظته من خوف الشاب الكبير على قميصه بمجرد أن تناولته بيدها، ثم رعبه الأعمى الذى بدا على ملامحه عقب تحذير هامس له أدلى به أحد المتفرجين من أسنانها.

خلال ساعتين تدخل كثيرون من أجل فض العراك الكلامى العجيب دون فائدة، سيل سباب ذو ألفاظ غريبة ومطولات ردح مبتكرة تلقيها "فوفا" دون انقطاع، وهو أمر أخذ يكتسب بمرور الوقت بعده الخارق وغير المألوف للغرباء من غير أهل الشارع، هذا الشعور الذى يأتى حين تفقد الأذن الأمل فى احتمال حدوث ما يقطع سباب "فوفا" ويرسخ فى مؤخرة الرأس يقين يائس بأن شيئا لا يمكن أن يوقفها غير الموت. وهى لم تتوقف حتى أثناء الشرح الضرورى

الذى يصاحب قدوم كل من يحاول فض العراك، شرح مسهب كان يقوم به فى بعض الأحيان – ويملل لا حد له – الشاب المستسلم أو أحد المتحلقين القلائل على الأرض أو فى الشرفات.

قرب منتصف الليل ندر المارة فى الشارع انتحى "مصطفى" الجريح ركن الرصيف ونام والجارة التى أشفقت على ابن "فوفا" الرضيع حملته وغابت به فى بيتها ومتفرجو الشرفات ذهب معظمهم إلى النوم والواقفون من حول العراك لم يكونوا يتجاوزون الثلاثة، والجميع دون استثناء نظروا إلى الشاب وقد اختفى من عيونهم كل تقدير لموقفه الصامت ومعالم التهذيب البادية على وجهه من أول الليل، لم يعودوا يظهرون أدنى شفقة كتلك التى أظهروها منذ البداية من أجله، واستقر فى عيون الجميع بدلا منها عتاب صريح. كان ثمة مهمة يجب أن تنجز ولم يكن هناك أنسب منه لإنجازها، نحى الشاب دراجته جانبا و"فوفا" معلقة برقبته، رفع يده للأعلى فى هدوء ثم تراجع وخفضها وعلامات تفكير مركز بادية على وجهه، أخيرا كور قبضته وقذف بها فى وجه المرأة المجنونة.

حالة

بدأ الأمر بنونوة غريبة، الصوت صوت قطة، لكنه صوت عار عميق جهورى يبدى أعماقا وعرة لا يمكن التسلل عبر طياتها أو اكتشاف هويات القابعين كسرٍ فى أعماقها، صوت نداء لكنه نداء عابس بطيء مينترخ كتمطع جسم نمر يستريح، نداء قط لكنه استبدل ثوبه القططي بثوب بشرى ضيق مرعش.

حضره خاطر أن يكون الصوت آتيا من وراء الباب، ربما أسفل النافذة، جهة المطبخ، تحت الفراش، نظر أسفل الفراش واعتدل لأن الصوت بدا فجأة نابعا من كل مكان حوله، يشبه سلسلة من الأصداء المقطعة والمرتبة ترتيبا هندسيا كما لو كانت تبعثها أصابع تدوس على أزرار مسجلة نقية الصوت.

دار فى ذهنه ربط لم يدر ماذا يمكن أن يكون بين ولده الأصغر المغرم بالقطط وبين انبعاث نونوة منتصف الليل هذه، لكن ما العلاقة بين ولده الأصغر أو غرامه بالقطط وبين ما يسمعه الآن؟! لوهلة برقت فى رأسه أشكال مخيفة من هذه العلاقة، كأن يكون الولد أصيب بمرض غريب نابع من التحامه المستمر بجنس القطط، أو كأن يكون الولد يحلم – بالأصح – قادر على أن يحلم بمثل هذا الصوت المفزع ويصدره أثناء النوم، أو..ربما أنه توحش!!. سريعا استبعد افتراضاته المخيفة المضحكة كأنها خارجة بعبلها من فيلم رعب، لن يكون ابنه ولا أى ابن آخر قادر على إصدار مثل هذا الصوت، رغم ذلك قام ليجتاز الطرقة الطويلة الباردة التى تفصل حجرته عن حجرات نوم زوجته وأولاده ويطل على وجه طفله النائم. طمأنه قليلا مشهد احمرار وجنتيه المتوهج من أثر دفء النوم. عاد سريعا، وكان الصوت قد تلاشى، اختفى، لم يتبقى منه سوى تفكيره هو فى مصدره، سأل نفسه: ما المانع إذن أن يكون الصوت صوت قط عادى وليس..؟

لم تكد الكلمة تخطر على باله حتى انقطع النور، غرق هو والبيت وربما الحى بكامله فى أنفاق ظلام دامس تمتد كوهم غير مترابط أمام عينيه اللتين تبرقان كعينى القطط. تخشب جسده وكادت روحه تطير من حلقه وأحس أنه يعيد ابتلاعها مع ثمالة من الريق الجاف على بوابة الحلق. أصبح فى وضع شخص لمسه سلك كهرباء عار وانصعق، وكان لابد أن تمر عليه أقل من دقيقة من التخشب التام حتى تعود إلى عروقه الدماء ويرتد إليه عقله المجمد فى برودة الذهول ويفتك جسده من أسر الصعقة.

تحرك أخيرا وهو مستسلم لقدره المحنط كمومياء والمكتشف حديثا كمخبأ أثرى لجثة، فى اختياره لهذا البيت الذى يسكنه راعى مراعاة لم يلتفت لها فى أوانها، شبه لا واعية تقريبا، خريطة توزيع العفاريت والجنيات فى أرجاء الحى، هذه الخريطة التى عرفها من صغره عن ظهر قلب، وحفظها كما تحفظ خطوط اليد وعلامات الجبين، وعرف – من صغره أيضا – كيف يتجنب مواقعها ومخابئها التى تنتمى إليها هذه الكائنات الـ "بسم الله الرحمن الرحيم"، وكان من النتائج الحسنة لهذه المعرفة أنه لم يقع أبدا فى مصادفة لقاء مرعب كهذا يمكن – كما فعل بالكثيرين – أن يودى بحياته أو يجننه أو يقعده كالجمادات ما بقى من سنوات عمره على فراش يأكل ويشرب ويتغوط فيه ويموت عليه فى النهاية.

أول ما صادفه باب غرفة نومه التى ندم على عودته إليها لأنها كائنة وحدها فى نهاية الطرقة، بعيدا عن كل حجرة وعن كل أحد فى المنزل، كان عليه أن يقطع الطرقة كلها بخطوات يحتك خلالها كعبا قدميه وتنثنى من تحتهما الأرض من شدة إحساسه بكمد الرعب الذى يتجمع فى رأسه كشاحن كهرباء يصدر أزيزا. فى حكم المؤكد أن يحدث له شىء الآن، وقد حدث، عند الخطوة الأولى فى بداية الطرقة رآه، كعامود من السواد المتفحم على خلفية الظلام الدامس، قدماه هما ما رأى، كان فى طول النخلة، أوشك أن يرفع رأسه ليتابع باقى جسده لكن تصلبا فى عضلات رقبته حاشه، ولم يحتج إلى ذلك لأن العفريت قصر فجأة كما اندلع أمامه وطال فجأة، فى ثانية واحدة تقلص ليصبح فى حجم فأر، ثم تقلص مرة أخرى فى حجم

نملة، ثم..فسسسسس..تذكر "راويه" الآن، راوية الله يلعنها ويلعن حكاياتها التى لم تكن تنتهى عن العفاريت والجنيات وضحاياهم الملبوسين والمصعوقين والمكهربين والمقتولين، الله يحرقك يا "راويه" مجرد مشهد كانت تؤديه أمامه وهو طفل تنفش فيه شعرها وتقلب جفنيها وتعوج فمها إلى جانب كان كفيلا بأن يحرمه نوم ليلات متتالية، الحمدلله أن هذه البنت فارقت جيرتنا صغيرة مع أهلها ولم تظل وإلا كان قتلها من جراء ما فعلته بطفولته. وتهيأ فى ذهنه خاطر سريع، إنه لن يصادف فى ظلام الطرقة التى بلغ منتصفها الآن سوى "راويه"، ليست "راويه" التى يعرفها ولكن فى هيئتها المرعبة، عاد الدم ليتجلط من جديد فى شرايينه.

ماذا يكون موقفه لو حضر النور فجأة، أو خرجت زوجته أو أحد أولاده يحمل الفانوس الكهربائى الذى يضيئ أوتوماتيكيا كلما قطعت الكهرباء وتنبعث وشوشة ضوئه الآن من الغرفة التى ينامون فيها على الجانب البعيد من هذه الطرقة الطويلة اللعينة؟، كيف يبرر لمن يراه منهم هذه الوقفة المرتعشة التى فقدت الرشد بعد مشهد الفزع السابق وأصبحت لا تدرى هل تتم الطرقة لنهايتها أم تعود مؤثرة النجاة ولا نجاة؟. رجلاه تلتفان على بعضهما، كفاه عند صدره، كتفه يستند للحائط حتى لا يقع رعبا..

ما عليه الآن من زوجته وأولاده، تحرك للأمام وهو يتذكر بعضا من عادات الجان فى إفزاع بنى الإنسان زادت ذكرياتها عضلات رقبته من تصلبها الأليم، وكأن عفريتا يرسى على قفاه ثقلا بيد واحدة، أصبح يتوقع أن يسمع نداء مفاجئا أو همسا غريبا أو صوت

كركبة مزعج يلتفت لفتة لا إرادية جهة مصدره فيرى على أثرها وجها مضيئا إضاءة شيطانية بعينين حمراوين ومنخرين شرسين وفم متوحش بارز الأسنان، وجه فقط وما يحمله يغرق فى الظلام. أو يتوقع أن يرى فتاة بالغة الجمال تقف أمام ماء، وراءها شجرة هائلة الحجم مكرمشة الساق تغمس شعور أغصانها المتدلية فى مجرى الماء، وتتقدم منه الفتاة لتكشف عن ساقيها وتغسلهما، لكن قبل أن تصل إلى الماء يرى هو بدلا من ساقين بشريتين ساقى ماعز وحافرى ماعز، وتقع عينيه على عينيها فتومئ له بنظرة خبيثة مرعبة وعلى شفتيها ابتسامة شريرة تقترب من إصدار أمر عليه بالموت أو بالشلل.

لكن عرض الطرقة المكتنز لا يمكن أن يسع مشهدا بهذه الضخامة! - أجاب خاطر من الخواطر التى تتسارع تحت غطاء رأسه دون سيطرة منه ورد عليه خاطر جديد - وهذا المشهد لن يدور داخل الطرقة ولكن فى رحاب ظلامها العفاريتى ذى الوديان الخفية الكثيرة. شعر فجأة بأرضية الطرقة أو ببساط الظلمة ينسحب من تحت قدميه، السقف والأرضية يتبادلان الأماكن فى انسيابية

تغريه بالاستسلام لانداياح إغماء مريح ينبع من أعمق أعماق نفسه.

ملاعين

خطط للأمر منذ الليل.. زوجة ابنه تنام لآذان الظهر. وابنه يخرج إلى عمله فى الثامنة بعد أن يفتح باب غرفته ليطمئن عليه. وأحيانا يدخل ليطمئن. يصبّح عليه ويقبل رأسه قبل أن يذهب. فى أحيان أخرى يستيقظ على برودة خفيفة تقترب من أنفاسه. يشعر أن بداية كهذه تلائم سحب روحه من جسمه. يفتح عينيه ليتشهد لكنه يرى أصابع ولده تتأكد قرب أنفه من أنه لا يزال يتنفس. هذه المرة، سوف يكون متأهبا ويمثل النوم. يترك أصابع ابنه تتحسس أنفاسه ثم يسمع خطواته تتجه خارج الغرفة وصوت الباب يقفل من وراءه. يظل ممددا على ظهره وعيناه ثابتتان حول دائرة كالسناج الأسود صنعها مصباح السقف فى محيطه المطلى بالبياض. يزحزح الغطاء عن صدره قليلا ثم يواصل الحملقة فى السقف دقائق. يزيح الغطاء من

جديد حتى ركبيته ويظل نائما على ظهره دقائق أخرى. هكذا تعود أن يفعل منذ إصابته بالبرد فى الأشهر الأخيرة. حين تذكر فجأة تعليمات أمه بخصوص رفع الغطاء عندما كان صغيرا. هذه النصحية التى لم يقلها له أحد بعد ذلك أبدا. ما ترفعش الغطا وتقوم من فوق السرير مرة واحدة عشان ما تاخدش برد. حتى الأطباء لم يقل له واحد منهم شيئا مثل هذا سمعه عشرات المرات منذ أكثر من ستين عاما. يتساند على الجدران وهو يعانى ألم المشى المعتاد كأنه يدوس على كل مفاصله. يصل دولاب الغرفة. يرتدى جلبابا للخروج ويقف أمام المرآة. يسوى بيده – وكما تفعل زوجة ابنه – خصلة من شعر أبيض طويل تبقت فوق رأسه. يتناول بيده الأخرى عكازا بنيا بلون الجلباب. يسير حتى باب الشقة. يغلقه وراءه دون صوت ويخرج.

***

أطباء هذا البلد لا يذكرون الحقيقة أبدا ولو كانت فى وضح النهار..

فكر مستاءً وهو ينتظر تاكسيا على ناصية البيت. ماذا لو قالوا له: ستموت هذا العام، ستموت العام القادم، تقديرا تقريبيا يريح باله طالما أن الأمر واقع واقع. يبقى انتظاره على نور أفضل من انتظاره لشبح يستطيع أن يضرب فى كل ثانية ولأمد طويل. الأطباء يخفون تشخيصهم –حتى فى حالات المرض الميئوس منه– عن المريض وأحيانا كثيرة عن أقربائه أيضا. يعتبرون عملهم هذا من باب الرحمة ومن الإيمان بقدرة الله على كل شىء. يحيى العظام وهى رميم. لكنه

يعرف أن الأمر هنا لا يتعلق بالموت وإنما باليقظة منه. ربما أن أحدا منهم قال لابنه شيئا وإلا لما اطمأن كل صباح على أنه لا يزال حيا. سأله وطبعا لم يقل شيئا. حلف أيضا أنه لا يعرف ما يخفيه عنه. وهو كذّب ابنه وصدق اليمين. لكن ابنه يمكن أن يكون صادقا أيضا. هو يعرف هذا الولد موسوس منذ صغره. ربما أنه يخاف الموت – في سنه هذا – أكثر منه.

افترّ ثغره عن ابتسامة خفيفة وذاكرته تستعيد فجأة منظر "الولد" في المرة الأولى التي ارتدى فيها زيًّا مدرسيا. كان زيا طوبي اللون مقلما بالأحمر وكان يرتدي تحت الشورت شرابا أبيض طويلا وحذاء أسود له رباط ولسان طويل. أصبح في هذه الأيام قادرا على استرجاع ذكريات قديمة مدهشة بدقة ما فيها من تفصيلات. وفي أحيان كثيرة تكون صورا رغم أن لها تفاصيل دقيقة إلا أنها تفتقد الترابط.

وقف له تاكسي. نزل سائقه وساعده على الركوب بعد أن لاحظ المشقة البادية عليه وهو يفعل. سأله إلى أين يتجه. قال:

– دكتور كويس.

– دكتور إيه يا حاج؟!

سأله السائق فنظر إليه بلوم وقال:

– أي حاجه يا بني المهم يكون كويس!

***

أنزله السائق تحت لافتة العيادة وهو يسأله ساخرا:

– هه..باطنه كويس!!

- ربنا يا بنى يخليك ويبارك لك فى أولادك!

أجابه هكذا مؤديا دور الرجل العجوز ومتحسسا أنفه. "يا راجل يا عجوز مناخيرك قد الكوز" يتذكر هذه الصيحة الطفولية التى كان يقابل بها مع أقرانه أى عجوز يصادفونه فى الشارع. لا يعرف ما هو الارتباط بين الشيخوخة وحجم الأنف لكنه أصبح يرى أنفه فى المرآة أكبر مما كان منذ عدة سنوات مضت. على الرغم من أنه قضى أكثر من عشرين عاما فيما يسميه الناس شيخوخة إلا أنه لم يشعر أنه عجوز إلا فى هذه اللحظات التى يذكره فيها أحد بما يبدو عليه جسمه من الخارج فيقوم تلقائيا بتأدية الدور. على مدخل العيادة أخذ الممرض يده الخالية من العكاز وأجلسه على طرف مقعد خشبى. على الطرف الآخر كانت تجلس امرأة شابة متألمة. بدا على وجهها ملامح ألم مكتوم يوشك على الانفراط من عقاله. ركن عجازه على باطن فخذه وانتظر قليلا قبل أن ينادى الممرض على الكشف التالى. دور المرأة الشابة لكنها - والألم يتفلت من ملامحها كما تتفلت الشوربة من حواف الأطباق فى إفطار رمضان التى لا تترك زوجة ابنه فيها مجالا للتنفس - قالت للممرض:

- لأ.. أخرنى أنا وخلى الحاج يدخل الأول!

نظر إليها الممرض ممتنعًا قبل أن يدعوه هو. هو الذى سكن الأسى كبده لما بدا للشابة أسوأ من ألمها.

***

نظر للروشتة بغيظ وللطبيب الذى عاد لفحص الأشعة. قال له:

– يا دكتور أنا عارف الأدوية دى وسمعت الكلام ده قبل كده!

حصى الكلا، كللها، متاعب الكبد، يعرف هذه الأشياء لكنه ينتظر أن يخبره بأمر من هذه الأمور الكثيرة التى يسمعها عقب موت الآخرين. ينتظر أن يقول له أحد أن جسده يعيش بثمن كلية أو أن الكبد انتهى أو أنه فى حاجة إلى غسيل للكليتين حتى يعيش أسابيع أخرى. ولأن أحدا لم يقل ذلك فقد ظل ينتظر. وانتظر طويلا حتى ما عاد يصدق أن شيئا مثل هذا لم يقع ويخفونه عنه. لو يطاوعه لسانه ويسأله مباشرة عما تبقى له من عمر بالتقريب لكن..حرام هذه واحدة. والأخرى أنه متأكد أنهم لا يقولون هذا إلا فى الأفلام. والأفلام الأمريكية على الأخص – نظرا لأن الأطباء هناك صرحاء – فإنها تحفل بالمواعيد التى يضربونها للموت. حاول مرة أخرى:

– طيب حالة الكلا شكلها إيه؟!

أجاب الطبيب الذى يبدو مكررا بدءًا من المنتصف فوق زجاج يغطى جوخا مفروشا على مكتبه:

– حالتها كويسه!

– أنت قلت من شويه إن حالتها سيئة!

حاصر الطبيب الذى بدا موشكا على الوصول إلى حافة الملل منه. وأخيرا قال له مطمئنا:

– أصل الموت حق علينا جميعا يا دكتور!

– ونعم بالله!

وبدا له أن الطبيب استعاد هدوئه من جديد للجريان غير الموفق لكلمة الموت على لسانه. هاجم مباشرة:

– طيب قل لى باقى لها قد إيه؟!

– حاجات بإيد ربنا!

مد يده ليدوس الجرس ويستدعى الممرض. لم يكن قد يأس لكن الطبيب عاجله قبل أن يفتح فمه قائلا بعصبية:

– أنت راجل عجوز وشبعت من الدنيا..عارف وشايف وانت قلت الكلمة دى ميت مره!

***

أنهكه المشوار ومداورة الطبيب. على باب العيادة هاجمه الدوار فمال على عكازه وأعاده الممرض إلى طرف المقعد الخشبى. وضع العكاز بين قدميه وأسند رأسه على الحائط خلفه. افترَّ ثغره عن ابتسامة. هز رأسه، قال: ملاعين!

فتح العينين

اكتسح الضوء جفونه المغلقة، سمع صياحا كثيرا وأصوات تحطيم وأشلاء تتناثر قرب الشباك المفتوح القريب من الأرض، ظلل عينيه بكفه وفتش عنها بنظره، لم يجدها قرب الشباك، كانت في الاتجاه الآخر من الغرفة تنظف مرآة التسريحة، رأى كفلها الذى يتخذ وضعا مثاليا أسفل جذعها المائل، استعاذ بينه وبين نفسه من الشيطان على الصبح، سألها بنبرة تزيح من حنجرته آثار النوم:

– فيه إيه يا عفاف!

قالت وعلى شفتيها زمتة لوم:

– صباح الخير يا اخويا!

لم تقل ما هو الموضوع، لكنه يعرف السر وراء كرمشة شفتيها، منذ أسابيع طويلة بدأت تنتابها مشاعر أمومية تجاهه، سوف تسأله بعد أن تتأكد من أنه لن يكرر سؤاله: لماذا لم يذهب إلى العمل؟،

وسوف يقول لها بجفاء: مش شغلك، لكنها لم تسأل، سألها هو:

– بقولك فيه إيه يابت؟

قالت بدلال:

– مالك كده!..بالراحة!..الجيران..الجيران بيتخانقو!

أزاح ملاءة السرير من فوقه، ذهب إلى الحمام وضع رأسه تحت صنبور الماء، عاد للحجرة وهو ينشف شعره، خلال ذلك كانت عفاف فقدت صبرها ودلالها واندمجت في الحكاية، وبدأ هو يتبين أبعاد المشكلة، فهم أن نزاعا نشب بين صلاح البقّال وأم عادل بائعة الشاى بسبب خمسين قرش خطأ فى الحساب، وأن النزاع تطور على العادة فانقسم المتنازعون حوله إلى أسرتين، ومن أسرتين إلى عائلتين، ومن عائلتين إلى مجموعات من العائلات المتضامنة والمارة والمتفرجين والراغبين فى فض الشجار والشارع كله، أثناء ذلك بدأت الزجاجات والأحذية فى التطاير، وعلى الأثر قام صلاح الذى يبدو أنه شعر بالتهديد بتكسير حاجات محله وإلقائها خارجه والاتصال بالنجدة متهما أم عادل وأخوتها وأبنائها وأسرتها وحبايبها بالاعتداء على المحل وسرقة ٣٠٠٠ جنيه.

على الأثر هرع أحباب الطرف الآخر إلى منزل عضو مجلس الشعب القريب وأتي به حتى يفض النزاع، كان قد سمع قبل يقظته بقليل صوتا مخنثا، ويبدو أنه تبين صاحب الصوت لأنه رأى فى حلمه قبة البرلمان، ورأى أشخاصا كثيرين محشورين فيها يستنجدون، وكان لهم جميعا نفس الصوت المخنث.

لا يعرف بالضبط ما السر وراء هذه "العادة القديمة" كما يسميها، عادة الأحلام، كل شىء يقع أو ينطق أو يتحرك من حوله

أثناء نومه يتحول فورا إلى حلم يتذكر الكثير من أطرافها عند يقظته. وقد احتار كثيرا فى هذه العادة، هل يعزوها لأسباب مخيّة فسيولوجية أو لأسباب جينية بيولوجية أو أنها موهبة خاصة.

عموما ليس الموضوع مُهمًّا فى هذه اللحظة التى دخلت فيها عفاف إلى الموضوع:

– مارحتش الشغل ليه؟

هى تحديدا تعرف إجابته، لكن أمومتها تحرص على أن تبدى نفسها فى كل مناسبة. لم يرد مبديا انشغاله فى حشر نصفه السفلى فى البنطلون، وهى التى استدارت ونظرت إليه أبدت خجلها، غريب أمر عفاف التى لا تخجل منه عندما يخلع ملابسه بعد أن يعريها فى الفراش تماما، ولا تخجل من منظر بدنه العارى أثناء ذلك، لكنها تخجل من حركة تبديل ملابسه!!.

ترك لها نقودا فوق التسريحة وقبلة على عنقها تلقتها كالعادة مخضوضة وخرج إلى الشارع.

فى الشارع رآهم على مقربة من بيته، زر عيونه ليرى جيدا، أحدهم أحضر تندتين خشبيتين من بيت مجاور، على جهة منهما جلس بعض أطراف النزاع وفى الجهة الأخرى تصدر عضو مجلس الشعب وإلى جواره من الجانبين بعض الوجوه المشهورة التى لا يظهر فى مكان بدونها، ولأنهم جلبوه من بيته حال تطور النزاع فقد سأل نفسه مندهشا عن الطريقة التى يجتمع بها أنصار العضو الموقر، هل يبيتون فى البيت معه؟! هل يبنى لهم حظائر خلفية يستدعيهم منها وقت الحاجة؟ فتّح عينيه وابتسم!!.

يا جمال!

عودها السارح من الأرض للسماء، أغصانها العارية كعنقود فارغ من حبات عنب قطفتها يد ألوهية جبارة وغرست هيكل العنقود في الطين من ذيله أمثولة للبشر، احتفظت الشجرة الجرداء بكل تفاصيل تفرعاتها الخالية من ورق أخضر، وبدت في تشكلاتها كأوردة تتفرع لشعيرات دقيقة تداعب في رهافة معيبة لحم السماء، ليست لعبة مجازات هنا، العجائز لا يلعبون، لحم السماء هو لحم السماء بعد أن تورد بما تشربه من حمرة الشفق، صرخ:

- يا جمااااال!..واد يا جمااااال!..

ليس من النادر أن يتصاعد صراخه على نحو يوحي بوجود ثعبان ينزلق في وعاء لبن على قرب منه، منذ تاريخه المرضي الذي يعود إلى عدة سنوات مضت وجمال يعاني من وضعه السيء كآخر من تبقى على قيد الحياة من أبناء رجل لا يزال يتفلت جسده من هجوم

أمـراض متنوعة، والأدهـى هـو أن عمـره تجاوز كل حـدود التـخمـين وتعود ذاكرته، رغم العمر، دون غبش أو تخريف إلى أيام "سعد سعد يحيا سعد" بل ومن قبلها إلى "يا عزيز عيني السلطة خدت ولدي"، ولم يكن ولدها سوى فتى أنجب صغيرا وقتل صغيرا في حرب عظمى لا يعلم شيئا عنها ليضاف ما سرق من عمره إلى عمر ولده العجوز معتاد الصراخ..

– واد يا جماااال!..يا واد يا جماااال!..

وجمال الذي أبيّض شعره وتساقطت أسنانه أصبح يعاني خوفا حقيقيا من أن يموت تاركا العجوز الخرف لأولاده وأولاد أولاده، جميعهم مغتاظون من طول عمره وطول لسانه وتخريفه المؤذي. بجفاف قلوبهم الذي يعرفه هو لا يستبعد أن يدفنوه حيا و.."يمكن لا يلوم عليهم أحد" هكذا يهمس منصفا بعض الشيء قلوب أبنائه ومسلما لله أمره.

– أيوه يابا!..

تتعلق به عينا العجوز العمشاوين ولا يفتح فمه قبل أن تمر دقائق ليتأكد أولا من أن الواقف أمامه ليس سوى ابنه الباقي على قيد الحياة، لا يكف العجوز عن الحذر من خداع بصره الكليل له ومن "عمايل المفاعيص"، مع أن المفاعيص لم يجربوا أبدا الاقتراب من "قفة العظم" فزعا من هذا العمر الذي استطال متخطيا حدود الخرافة. في الواقع، لم يستطع جمال أن يفصل أبدا بين عمر أبيه الطويل وبين حذره المتزايد، كان على قناعة لا تتزعزع من أن الحذر الشديد، والذي ليس في طاقة بشر، يمكن أن يطيل العمر إلى هذه

الدرجة السخيفة. أما خرافة زواج أبيه فى شبابه من جنيّة تحت الأرض تسجن روحه معها وتسجن عفريتا شبيها يتعفن داخل الجسد العجوز..هذه الخرافة تجاهلها جمال بعدما عرضها على عقله فلم تحدث معه فارقا، إذ إنه هو - وليس أى أحد - السجين الفعلى لطاعة من يعيش داخل هذا الجسد المعمّر حتى يتهالك، أيا كان..

- خد معك عيلين وشوية بلط ومساحى وروح اقطع بنت الوارمه اللى هناك دى!..

وينظر جمال من حيث كان يقف خارج البيت إلى حيث يشير العجوز فلا يرى أى شىء وارم. بخبرته يعرف أن الموضوع هكذا سيتعقد وتطول الشروح فيه، يجلس إلى جواره على فرشة المسا ويسند ظهره إلى دعامة الباب، يسأل حاكًا ذقنه:

- هو إيه؟!!..

- الشجرة دى يا أعمى!..

يقول العجوز ببساطة، فيصرخ جمال وكفَّاه يتشنجان فى حجر جلبابه داخلا عراكا يكون مدخله الدائم إليه غيظ قاتل:

- وأنت مالك ومال الشجرة دى يا بويا؟!!..

والباقى كان يعرفه، يتلقى وابلا من الشتائم تخص أمه التى لا يتذكر شكلها جيدا بعد أن واراها التراب منذ كان طفلا، والوابل يبدأ ولا ينتهى إلا بتلبية رغبات العجوز أيا كانت. ومن غيظه يجرى جمال، يلتقط بلطة مسنونة الحد ويجرى، ثم يهوى بها على جذع الشجرة محدثا دويا شديدا.

حكاية عن الحلاج

واتاه خياله برؤية عن الحلاج عندما كان يقول:"ما فى الجبة إلا الله".

كان من حول الحلاج فى الرؤيا جمع ملتف وقال لنفسه: إن من قتلوه حكموا بفراغ الجبة إذا لم تمتلئ بشىء آخر غير الحلاج وإلا لماذا لم يصدقوا بكل بساطة أن الله هو ما كان فى جبة الحلاج وأن الحلاج كان خارج جبته عندما تكلم وقال: إن الله كان داخلها كما كان خارجها منذ البداية وإن الجبة..

انقطع دوران الفكرة عندما اقتحم هواء غرفته قرع على الباب..اختفى الحلاج

- أيوه يا ماما..

ربما كانت أمه تعرف الحلاج، هو لم يفكر فى ذلك من قبل، فقد

كان خاله فى فترة سابقة من حياته أحد مجاذيب الصوفية وكانت عائلة أمه، فى تلك الآونة، تجوب موالد القطر كله فى أثره وذات يوم وجده أخوه بالصدفة ملقى على حصيرة أمام بيت فى زقاق يرتدى الخرقة التى لا تكاد تستر جسده العارى والزبد الأبيض يسيل على شفتيه ولونا عينيه مختلطان و..يحتضن امرأة.

ربما يكون خاله قد حدثهم ذات مرة عن الحلاج لكنه احتار فى قيمة الفكرة نفسها ربما يكون خاله قد حدثهم عن الحلاج وربما يكون خاله لم يحدثهم عن الحلاج.. ما أهمية أن تعرف أمه من هو الحلاج؟ لا أهمية لذلك طبعا لكنه أحس أن فكرته عن إمكانية معرفة أمه بالحلاج كانت فكرة جيدة.

طلبت أمه الخروج.."أف"..هذا يعنى أن يصطاد لها سيارة من عرض الطريق تنقلها مسافة لا تزيد عن خمسين مترا، المسافة قريبة لكنها عجوز بصورة لا تسمح لها بالخروج إلا بمساعدة حلاج طائر مثله.

على الطريق وسرعة السيارات تلفحه بهوائها فكَّر فى أن الحلاج – التاريخى وليس الحقيقى – لم يكن إنسانا عاديا ولا عظيما ولا من أهل الله، والأخيرة كلمة تحتمل الكثير من المعانى، الحلاج كان شخصا دعاهم إلى الاهتمام بكلمته الصغيرة اهتماما وصل بهم إلى حد قتله. بالطبع كانت هناك الأسباب السياسية وما إلى ذلك، لكن الجرأة التى صاحبت تصريح الحلاج توحى بوجود العديدين إلى جواره ممن كانت لهم تصريحات ربما بعضها أخطر، لكنهم لحظة النحر لم يختاروا سواه ليجعلوه نموذجا لكل هؤلاء ولكل أصحاب التصريحات الخطيرة.

هذا يعنى أنه لم يكن تحت أنوفهم حلاج آخر أخطر منه.

أخيرا وقفت سيارة وبدا سائقها فاقد السمع مما اضطره لرفع صوته عدة مرات خلال التفاهم معه ولم يبد الرجل رغم صوته العالى مستوعبا لما يقال له حتى بعدما جلس وراء مقود سيارته وأشار بيد ونظرة عين قائلا:

– هات الوالدة

وهو استراح لهذا السائق أولا لشعره الكستنائى الوقور الذى ذكره بمتصوفة القرن الرابع الهجرى وجعله يزمع تركيب هذا الشعر على رأس الحلاج عندما يواتيه خياله برؤيته من جديد وطبعا لأنه ثقيل السمع، فالوالدة محترفة ثرثرة مع الغرباء وهو حاول عدة مرات أن يخلصها من مشاعر ثرثرتها تجاه العالم لكنه لم يفلح.

"الحلاج إذن لم يكن ثرثارا"

فكر هكذا وأمه تتساند على ذراعه وتركب..تركيبة العبارة توحى باقتضاب فى التعبير وبحث طويل عن المفردة قبل النطق بها..الأدهى وهو ما أدى إلى مقتله فى الغالب هو أن عبارته توحى بأبسط الطرق وأكثرها بداهة فى التعبير "ما فى الجبة إلا الله" يا سلام..وهل يوجد عاقل على ظهر الأرض يمكن أن يرد عليه نافيا أن الله ليس فى الجبة؟ لكن يبدو أن أناس هذا العصر لم يكونوا يرون الله جيدا ولا الجبة ولا الحلاج.

هكذا أصبحت أمه فى موقع بينه وبين السائق وعلى الفور التفتت للسائق قائلة:

– عامل إيه يا حبيبى؟

لازمة ومفتتح وبداية.. لكن السائق ثقيل السمع لم ينتبه فاستمرت أمه فى الثرثرة هى كانت تعرف أن ما أمامها من طريق ليس طويلا لكن لازمتها تغلبت عليها كل أربع أو خمس عبارات تتوقف لتسأل مستمعها سؤالا ليس مهما أن يجيب عليه ولكن من المهم دائما أن يبدأ مستمعها فى الإجابة حتى تقطعها هى فورا بثرثرتها.

بعد سؤالين بالإضافة إلى سؤال المفتتح لم تكن العجوز قد تلقت أى بوادر تشير إلى إنصات السائق لها وهو ما تسبب فى غضبها وجعلها تصيح بفعل صممه الذى اكتشفته أيضا وبكل اطمئنان:

- أنت حمار..

وهى ليست شتيمة مهمة فى الواقع خصوصا لو وجهت إلى شخص لا يسمعها لكن ما حدث هو أن السائق سمعها قد يكون التفت مثلا فقرأ حركة شفتيها مثل معظم من يعانون ضعف السمع أو أن طبلة أذنه التقطتها فى صحوة مفاجئة أو بفعل معجزة من طراز يختلف بعض الشىء عن تلك التى نسبت إلى الحلاج التاريخى وليس الواقعى.

ولم يتسامح ثقيل السمع مع الأمر فركن سيارته على جانب وبدأ فاصلا من الاحتجاج الموجه ضد العجوز وكان مفتتحه بأسئلة من هذا النوع:

- أنا حمار ؟..أنا ؟.. طيب تعرفى من أنا عشـان تقـولى لى: يا حمار؟..

وإذن كان مقدرا له أن يستمع مع أمه العجوز تعريفا شاملا وغير مخل بحياة ثقيل السمع وأحداثها الأساسية لكن قبل أن ينتهى

التعريف كانت نبرة احتجاجه قد ذابت وحلت محلها شكوى صريحة:

- تصورى يا حاجه..تصور يا فندى..ولادى..ولادى بيشتمونى فى حضورى ويتصورون أنى لا أسمع!

أسفر السائق إذن عن شخص لا يسمع بأذنيه إلا شتيمته.. هكذا فكر قبل أن يصرخ:

- طيب خلاص.. يالا امشى.. هى كانت مأساة الحلاج يا أخى!

المحتوى

إصدارات
سلسلة حروف

1- اليوم الذى.. بدأ .... عطية معبد

2- أو ما يشبه العشق .... فدوى حسن

3- ناسي حاجة .... السعيد المصرى

4- حكايات من بلاد البمبوزيا .... محمود سيف الدين

5- أعمي بيقرا كتابه.. بتصرف .... محمود الحلوانى

6- كتَابُ السُطُور الأَرْبَعَة .... حمدى الجزار

7- حبيبتى مسروة .... نصر عبد الرحمن

تتسم هذه المجموعة بسعيها لاقتناص الطرافة، والغرابة، بمعنى مفارقتها للعادى، واليومي، والمعيش، على مستوى الموضوع، كما على مستوى اللغة أيضا. ويمكن للقارئ أن يترصد ذلك فى الشخصيات والمواقف، بدءا من غرابة الكوابيس ومنطقها السوريالى ووضعية من تنتابه هذه الكوابيس ومعايشته لها وهو ما اشتغله الكاتب بكثافة فى القصص الأولى من المجموعة، مرورا بشخصياته التى تتسم بدرجات مختلفة من غرابة الأطوار حيث تأتى هذه الشخصيات بأفعال مفاجئة أو غريبة وطريفة، وتتميز المجموعة أنها مليئة بالمواقف المختلفة التى تحمل هذه السمات.




الغلاف... د. خا




www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com

الثمن : جنيهان